سلسلة آباء الكنيسة

٢

نقولا كاباسيلاس

الحياة في المسيح

عرّبه عن اليونانيّة
غبطة البطريرك الياس الرابع
بطريرك انطاكية وسائر المشرق

منشورات النور
بالاشتراك مع
رابطة الدراسات اللاهوتية في الشرق الأوسط

نقولا كاباسيلاس

الحياة في المسيح

عرّبه عن اليونانيّة

غبطة البطريرك الياس الرابع

بطريرك انطاكية وسائر المشرق

منشورات النور

بالاشتراك مع

رابطة الدراسات اللاّهوتية في الشرق الأوسط

An - Nour Publications
with the cooperation of
The Association for Theological Education
in the Near East (A. T. E. N. E.)

توطئة

الحرية والمحبة هما العمود الفقري لكتاب «الحياة في المسيح» لنقولا كاباسيلاس . والحياة في المسيح في ألوهته ، في محبته ، في حريته ، في ثالوثٍ مقدس لكمال الصورة والمثال بالحرية ولتحقيق الغرض الالهي المقدس من خلقة الانسان . ويشدد الكاتب على حقائق ثلاث كأبواب للحياة في المعرفة والحق: المعمودية التي تدخل الى حظيرة النقاوة والمسحة المقدسة القفل المتين لهذه النقاوة والمناولة الحياة الكلية في المسيح . وفي كل هذا تلعب الارادة دورها في الحياة الجديدة وعليها يتوقف تقرير نوعيتها فالاختيار من خصائصها وذلك بالحرية التي منحها اياها الرب احتراماً لمّا خلقه حراً مختاراً .

ان نقاوة القلب والفكر والروح شرط أساسي لدخول الله الى مسكنه فالقذارة الحاصلة بسبب الخطيئة والدنس الناتج عن التفكير الشرير بسبب انحراف الارادة عن طريقها الصحيح وزيغان العقل بسبب التواء ارادي تمنع الله الكلي القدرة ، الكلي النقاوة ، الكلي الصلاح ، النور الذي لا يدانيه نور ان يسكن في بيت مظلم بالخطيئة . فالمعمودية هذا الحمام الروحي يستهدف غسل الدنس والأوساخ . انها تميت الانسان العتيق بظلمته ، انسان الخطيئة وتبعث ابن الثالوث المقدس . الولادة الجديدة ولادة سرية لا يشترك فيها لحم الانسان ودمه بل التثليث بكل قداسته . انها البطن الجديد المقدس الذي يميت ويحيي . انها

اشتراك سري في موت المخلص وقيامته، اشتراك ارادي يحصل في داخل الانسان استعداداً ويتحقق عملياً والمقصود العودة الى الفردوس السماوي الذي خلق الانسان له منذ الأزل وزوّد بكل الامكانات للبقاء فيه بمحض حريته واختياره .

كان الانسان قبل معصيته وسقوطه مزوداً بكل الامكانات الروحية التي تحميه من كل عثار ولكن الشيطان وسوس له فترك الارض المحروثة بالمحبة الى الارض البور ليرعى الشوك والحسك وتحولت محبته الى محبة محصورة لا تتعدى حدود الذات ، حدود الانانية والكبرياء ، حدود العقل الذي قصر مداه ، والعقل يقصر مداه بدون المحبة الالهية، حدود التّلا الالهية في عالم الارادة ، هذا المحك والمختبر لقوى الانسان الروحية في الثبات في منزلته ومن ثم اجتياز هذه المرحلة بالارادة الحرة الى وحدة بالله ارادية يكون فيها الانسان شريكاً في مجد أبيه السماوي .

وعرف الشيطان كيف يوسوس للانسان . أثار فيه حبّه للمعرفة . صوّر له انه ان هو تجاوز النهي الالهي بلغ ما هو الله عليه من كمال ومعرفة . فاندفع وراء الاغراء فكان هذا التاريخ الانساني القلق المضطرب وكان هذا التفتيش الدائم عن المعرفة وكانت هذه الحضارات الانسانية بوجهها الخيّر الممثل لفيضان الصورة العفوي وسط أوجه أخرى تمثل العقل في زيغانه المجنون وشروده وراء سرابية جذبته فأعمته وتركته كحاطب ليل يتعثر هنا وهناك في رحلة شاقة اضاعت الارادة فيها لجامها والعقلُ قوّته الرادعة والروحُ نورها ونقاوتها وهوى يلعق التراب القائظ في صحراء خلقتها كبرياؤه وألهبتها أنانيته .

ويقطع الانسان علاقته بخالقه فيطرد خارج أبواب الفردوس ومنذ ذلك التاريخ والانسان جوّال حائر يطرق الأبواب الا باباً واحداً

مستجدياً المعرفة التي وسوس له بها الشيطان ليصير الهاً. أراد ان يعرف الخير والشر. كان في عالم الخير فضعضعه الشيطان فأضاع خيره وصلاحه وبقي في عالم الشر يعمل ويكافح ويحاول ان يصل الى المرتبة التي وسوس له بها ابليس مع ان الوصول اليها حتى بعد السقطة كان يتوقف على كلمة واحدة يقولها الانسان لخالقه ، لأبيه ، كلمة ابن فيها محبة تائبة ، كلمة ندامة ، كلمة فيها جرأة الابن الخاطىء مع تصميم خلاق ، ارتماء في أحضان الآب لتتم الرغبة وتتحقق ألوهة الانسان الحقيقية التي وضع الشيطان دون تحقيقها كبرياء الانسان المظلمة . ويشرد الانسان ، يطارده الموت ، وتلاحقه الأمراض والأوجاع ، ويركبه الألم والعذاب . هذه القصاصات الملازمة للانسان حتى يعود الانسان الى حيث كان من صدر أبيه السماوي . حتى الموت يحتضن أكبر قسط من محبة الله بالرغم من رهبته . انه التعبير عن عظيم محبته . انه الدواء المهذب ، والمذكّر للانسان ، حباً به ، بفشل ما يحاوله ويفعله ، في عالم غريب عن حقيقته الالهية . وتلاحقه رحمة الله ، ومحبته بشتى الصور ، فلا الانسان يعود ، ولا الله يوقف رحمته . وكلما ازداد الانسان شراً ، كلما ازدادت محبة الله حرارة ودأباً . اين للانسان الغارق في الشر ان يسمع صوت الله الرحيم ، العادل ، المحب ، المؤنب والمرشد على لسان انبيائه ومرسليه ؟ أين له ان يرى رحمته ومحبته تسيران في خط نيّر عبر تاريخه الحافل بشتى ضروب الفساد والانحلال ؟ وعند تمام الازمنة ، عندما طغى الشر طغيانه ، عندما لم يعد للانبياء والمرسلين صداهم في أرواح الناس ، عندما زاغ الكل والتطخوا وحرصاً من الله على خليقته ، أرسل الله ابنه الحبيب الذي أراد ان يسمع له الناس ، ليكون طريق العودة الى الله لانسانية ضلّت طريقها فكان هذا الطريق وكان هذه الحياة الجديدة وكان الحق المحرر وكان المصالح الذي حمل كل الخطايا وتحمّل كل العذابات والامتهانات وانتهى بالصليب فالموت فالقيامة ، وهكذا احتقر كبرياء البشر وغلب

قوة الخطيئة بالموت وغلب الموت بالموت معيداً للموت معناه الذي قصده الله عندما فرضه كقصاص ألهي على الانسان أي المهذب القائد الى بعث حي يفتح الفردوس أمـــام الانسان المحرر بأبن الله وبدمه وجسده الكريمين . طوّف المخلص بين البشر حباً وتواضعاً وغفراناً ورحمة وحلّ روحاً شافياً للأمراض وقوة مشددة لمنحلي الارادة ونوراً فكرياً للعقول المظلمة وبلسماً لجراح المعذبين بالخطايا التواقين الى استقرار في النـور . فعل كل هذا ، وتمّ عظيم فعله ، في اعطاء جسده ودمه لأخيه الانسان ليساويه فيه في الملكوت السماوي .

ان **نقولا كاباسيلاس** في كتابه «**الحياة في المسيح**» يطرح هذه الحياة الالهية بكل عمقها واتساعها أمام الذين اعتمدوا وتنقوا والذين تناولوا الدم والجسد الطاهرين بصورة تمور بالحياة، يطرحها حقيقة تجدد وتخلق وتبدع وتقوّي وتشدد وتحرر وتغلب الموت وتحقق الملكوت السعيد وتنتهي بالوحدة الكاملة مع الله ، الغرض البعيـد والقريب من خلقة الله لخليقته على صورته ومثاله يطرحها بطريقة ترى فيها ايمانـــه ووعيه وادراكة للحقائق الالهية وتشعر انه عاشها ، ترى عمق درسه للكتاب المقدس وعمق استخلاصاته حتى ينتهي برؤية المسيح حياةً كلها حب كل الحب يحتضن الانسان ويحييه ويغذيه بأقدس ما يُعبّر عن الحب ، بالجسد والدم . وهكذا يعطينا المسيح كل ما عنده ، يعطينا حضـوره اسراراً تقدسنا وتفتح لنا أبواباً للفردوس تدخلنا ولا تخرجنا وتنقينا لنكون فردوساً لله ومسكناً له وهيكلاً مقدساً بحضوره الكلي .

في هذا العصر الغريب العجيب بعقله وتفكيره واتجاهاته يحتل الايمان، لسوء الحظ ، المرتبة الدنيا في تقرير مصير الانسان ولهذا كثرت الحروب والقلاقل والاوبئة . في هذا العصر الذي يطعم الانسان أخاه الحقـــد ويرويه بالغل ، في هذا العصر الذي ابتعد الانسان عن رسالته الحقيقية

وزاد زيغانه تقف الحقيقة المسيحية برسالتها الالهية، كما كانت دائماً وابداً، وسط هذه الصحراء القائظة كواحة للملفوحين بهجير الغربة تدعوهم لتكون لهم ركيزة راسخة ورجاءً وطيداً ونوراً وحيداً يهدي ودواءً شافياً من القلق والاضطراب، وحياة لا تعرف الظلم والقسوة والخطيئة والحروب بل الطمأنينة النفسية والرجاء والمحبة والحرية والعدل والاخاء والمساواة النابعة من حياة إله مات حباً وقام محرراً الانسانية من عقالاتها. في هذا العصر الغريب العجيب ينسكب ايمان كاباسيلاس في قلوبنا ليوجهها نحو الحرية والسلام الحقيقيّين.

ولد نقولا كاباسيلاس سنة ١٢٩٠ ومات سنة ١٣٧١ وكان صديقاً لامبراطور بيزنطية يوحنا كاتاكوزينوس. كان مولعاً بالفكر اليوناني القديم وكان صديقه ديمتريوس سيدوناس يحاول ان يجرّه الى تياراته الفلسفية السكولستيكية ولكن كاباسيلاس بالرغم من تأرجحه في هذا العالم المغري من العقلانية انتهى الى الارثوذكسية التي دافع عنها غريغوريوس بالاماس وصار من أقوى المدافعين عن الهدوء الآثوسي، ان لم نقل كان من الهادئين. كان الامبراطور من محبي التوحد وقد ترك العرش ونسك في جبل آثوس فصحبه كاباسيلاس وتوحّد في دير منكانون.

تقول الاخبار التاريخية ان كاباسيلاس دعي ليكون خلفاً لعمه نيلوس كاباسيلاس اسقف سالونيك ولكن التحريات الدقيقة العلمية تثبت ان نقولا كاباسيلاس لم يصر اسقفاً لسالونيك ولم تعرف سالونيك اسقفاً بأسم نيلوس كاباسيلاس وان نقولا كاباسيلاس بقي في منسكه متوحداً يكتب ويعلم ويشرح الكتب المقدسة ويفسر مضمونها بطريقة مستيكية رائعة. واهم ما كتبه كتاب «**الحياة في المسيح**» وشرح الخدمة الالهية حيث يعطي وزناً كبيراً لاشتراك المسيحيين الوجداني فيها ويؤكد ضرورة فهمها عقلياً وروحياً.

اهتم الكثيرون بدراسة كاباسيلاس وقد اجمع كل دارسيه على انه كان رجلاً واسع الاطلاع، مالكاً للمعرفة العقائدية بعمق. قال الشعر وكتب في الفلسفة والاجتماع وتآليفه، كما يقول يوحنا سخولاريوس، «زنبقة فوّاحة الاريج في كنيسة المسيح وخصوصاً كتابه الحياة في المسيح».

لا يتميز كاباسيلاس في كتبه بالعلم اللاهوتي والتقوى والايمان فحسب بل بلغته وفنه الكتابي الذي ضاهى كتّاب اليونان الاقدمين. يقول Cave ان كاباسيلاس اكتسب اسماً عظيماً في الاجيال اللاحقة اما Bossuet فيعتبره من اقوى اللاهوتيين الذين عرفتهم الارثوذكسية خلال اربعة قرون. وكتاب الحياة في المسيح يعطينا صورة واضحة عن عمق ايمانه وقوة تفكيره الروحي واتساع مداه وادراكه للحقيقة المسيحية ادراكاً يضع الوحدة مع المسيح في الاطار الحقيقي لها وهكذا يتحقق الملكوت المعرفي السماوي وتنحل عقالات الشرير ويسقط ملكوت ابليس ويأخذ التجسد الالهي وجوده الذاتي في الانسان فيصعد الى حيث نزل ابن الله ليرفع الانسان الى ابيه.

وخير خاتمة لهذا التمهيد الموجز صلاة كان يقولها كاباسيلاس كلما وقف امام الانسانية المؤمنة الملحدة، المتواضعة المتكبرة، المحبة الحانقة، صلاة فجرها من اعماقه المسالمة الهادئة الوادعة تحت فيض من كشوفات النعمة الالهية، صلاة كلها توسلات ورجاءات وثقة من اجل الشعب المؤمن الحسن العباده، والشعب الضال لانارته واعادته الى الطريق القويم الالهي:

«اطلب اليك ايها الجزيل الرحمة ان تستجيب لاصوات آلامنا وعرقنا وتتعطف علينا. استجب لنا للمحبة التي احببناك فوق الاهل والابناء وفوق كل شيء، فوق نفوسنا المشتاقة لمجدك، وانظر الى شعبك

وميراثك وهب السلامة لمدينتك وقـــدس كنيستك واجعل كهنتك يلبسون العدل واعط حلمك للملوك وبدد المعارك الاهلية وبطل الدوار المستحوذ علينا واوقف الحروب العامة والخاصة التي يقيمها الشيطان . كن عونـــاً للجميع الذين يستدعون اسمك واترك خطايانا وشددنا في وصاياك واهلنا ان نجتاز حياتنا لمجد اسمك واجعلنا في الحياة المستقيمة مع محبيك لميراث ملكوتك » .

نشيدٌ يعبّر عن محبّة كاباسيلاس للانسان ، محبة مستمدة من محبته للمسيح . انه صوت انسان عاش الحق المسيحي فآلمته المشاحنات والهذيانات الصبيانية والدماء التي سبب سفكها الشيطان لسيطرة عالمه . والحياة في المسيح هي صورة صادقة عن المدى الذي يبلغه الانسان ان هو دخـل الابواب السماوية ووجها بالنقاوة والطهارة وباللباس النيّر المضيء ، لباس المسيح بالجسد والدم .

الحياة المسيحية

تولد الحياة المسيحية في هذا العالم لكنها تتطور وتنمو فتصل الى كمال نضجها في الحياة المستقبلة . ويحاول المسيحي ان يحقق ، هنا على الارض ، كمال الحياة في المسيح فلا يستطيع لان تحقيق هذه الحياة يحصل في السماء فقط ، هذا اذا نجح في ان يمتلك في الحياة الحاضرة بذار الحياة في المسيح ومبادئها . وما دام الانسان الان لا يزال يحمل الجسد الفاني ويشعر بالانجذاب نحو تلك الامور الباطلة الخاطئة ، لا يمكن ان يورّث الفسادُ الخِلقي عدم الفساد السماوي . كان الرسول بولس يهرب من هذا العالم شوقاً الى عدم الفساد وليكون مع المسيح دائماً « فلي رغبة في الذهاب لأكون مع المسيح » (فيلبي ١ : ٢٣) . اولئك الذين يرحلون عن هذا العالم بدون ان يتسلحوا بالقوى الروحية والمشاعر الضرورية لحياة السماء هؤلاء سيخسرون الغبطة الابدية وسيقطنون العالم الذي لا يموت اشقياء واموات روحياً كما كانوا و وجدوا ساعة رحلوا .

لماذا لا يتمتع هؤلاء بالفرح السماوي ؟ لانهم كانوا يفتقرون الى ابصار روحية تمكنهم من رؤية النور الروحي ، رؤية شمس العدل ، رؤية المسيح المشع في كل اتجاه . ان اريج الروح القدس سينسكب بغزارة وغنى كريم وسيملأ الجميع ما عدا اولئك الذين يفتقرون الى المشام

الروحية . فان الله في ذلك اليوم الذي لا يعروه مساءٌ سيجعل من اصدقائه شركاء في الاسرار الالهية وسيعطيهم كل ما سمعه من ابيه وسيكون هذا الشرف العظيم لاولئك الذين جعلوا المسيح صديقاً لهم في حياتهم على الارض دون غيره . من لا يعمل على الارض لا يستطيع ان يرتبط برباط الصداقة مع المسيح ولا ان يمتلك سماعاً روحياً ولا ان يهيء لذاته اللباس اللائق بالنفس . كل هذه الامور ضرورية للدخول الى خدر المسيح الكلي الضياء . في معمل الحياة يستطيع المسيحي ان يحقق هذه الامور . اما الذي يرحل بدون هذه التجهيزات فلا نصيب له في الاشتراك في الحياة غير الفانية . تذكروا العذارى الخمس الجاهلات . تذكروا الذي دُعي الى العرس . لم يتمكنوا من ان يحصلوا لا على الزيت ولا على اللباس فبقوا خارجاً لانهم لم يستعدوا في حينه .

وحدتنا مع المسيح

يتكوّن ، هنا على الارض ، بالتعب والالم ، الانسان الداخلي الذي يبنى روحياً حسب الله وعندما يصل الى الكمال النسبي ،يولد بعد الموت في ذلك العالم الكامل الازلي . وكما تهيء الطبيعة الجنين وهو في بطن أمه للحياة النيرة كذلك يتكوّن المسيحيون ويستعدون للحياة الاخرى ، وهذا ما يعنيه الرسول بولس عندما يكتب الى اهل غلاطية :«يا بنيّ ، انتم الذين اتمخّض بهم مرةً اخرى حتى يُصوَّر فيهم المسيح » (غل٤: ١٩) . ان صورة الاجنة ، لا تفي في الواقع بالغرض لان الاجنة ، قبل رؤيتها النور لا تملك اي معنى او اي شعور عـــن حياتها الخاصة اما القديسون فيملكون كشوفات كثيرة عن الحياة المستقبلة قبـل الموت الذي به يولدون في العالم الآخر. لماذا ؟ لان الجنين قبل تكوينه واتيانه للنور يكون ناقـص الوجود والحياة . انه ما رأى بعد حتى ولا شعاع شمس وما اقترب من تلك الاشياء التي تسهم في الوجود وفي الحفاظ على الحياة الحاضرة ، وما جابهها.لا يحدث مع المسيحيين ما يحدث تماماً مع الاجنة لان الحياة المستقبلة ليست بمجهولة ولا بغريبة كلياً عـن الحياة الحاضرة. انها في ترابط مع هذه الحياة.فالمسيح الشمس الروحية اشرق فينا برحمته التي لا تحد وبتنازله.وإنسكب اريج الروح القدس السماوي في الارض المتقيأة بروائح الخطيئة الكريهة وقد نفشتها سماً.والشيء الذي يفوق العجب هو ان الخبز السماوي اعطي للبشر .

لاجل هذا لا يملك المسيحيون امكانية الاستعداد للحياة المستقبلة فحسب بل يملكون امكانية الحياة والعمل كمواطني السماء . « جاهد في الايمان جهاداً حسناً وفز بالحياة الابدية التي دعيت اليها» (١تيمو٦:١٢) يقول الرسول بولس . ويقول في رسالة اخرى: «فما انا احيا بعد ذلك بل المسيح يحيا فيّ» (غل٢:٢٠) ويصرخ المتوشح بالله القديس اغناطيوس: « ماء حي يتكلم ويقول في داخلي هلمّ الى الآب » رسالته الى اهل رومية). ان الكتاب المقدس مليء بمثل هذه التعابير التي تدعو المسيحي وترشده ليوجه انظاره الى فوق. وبالاضافة الى هذه التوصيات فالسيد، وهو نبع الحياة الحقيقية ، يقول ويعد بأنه سيبقى مع المؤمنين الخلص من انصاره الى الابد (متى ٢٨ : ٢٠) . أهناك ما هو اسمى من الحياة مع المسيح وارفع ؟

وبعد ، فالمسيح لم يعطِ بذار المسيحية فحسب بل أعطى وجوده بالذات ، انه موجود في داخلنا ويعمل فينا « فأن الله هو الذي يحدث فيكم الارادة والعمل لارضائه » (فيلبي ٢ : ١٣) كما يقول الرسول بولس . فهو الذي يشعل نار المحبة والذي يملك الحرية ، أي الحقيقة هذا الكنز الذي لا يثمن . فكما ان الفأس « بدون من يستعملها للقطع » (اشعيا ١٠ : ١٥) لا تفيد شيئاً كذلك المسيحي اذا لم يكن المسيح عاضده ومعينه . فالمسيح هو المقوي والمشدّد لنا . لم يَعِد بأن يكون معنا في حالات معينة بل وعد ان يكون مع المؤمنين دائماً. والأعجب انه قال بأنه سيجعل من أرواحنا بيتاً ومقاماً لسكناه . لماذا أقول مقاماً؟ لأن رحمته هي من العظمة بحيث جعلته يتنازل ويتحد مع مختاريه ويصبح روحاً واحداً ، « وأما من اقترن بالرب فقد صار واياه روحاً واحداً »(١كور ٦: ١٧) « فهناك جسد واحد وروح واحد، كما انكم دعيتم دعوة رجاؤها واحد» (أفسس ٤ : ٤) لم يقل هذا القول انسان عادي . انه بولس الناطق بهذه الحقيقة الكبرى .

الاتحاد الاسمى

ان صلاح الله لا يعبر عنه ومحبته للجنس البشري لا تقاس . انها تفوق كل تعبير ومثال «كسلام الله الذي يفوق كل ادراك» (فيلبي ٤ : ٧) . ان هذا ينطبق تماماً على الوحدة بالمسيح التي تسود وتسيطر على كل وحدة أخرى . ولا يمكن لأي مثل من أمثلة الوحدة البشرية ان يوضح ويعبّر التعبير الحقيقي عن سمو الوحدة بالمسيح . لذلك يكثر الكتاب المقدس من الأمثلة لتقريب هذا الى مدارك البشر ولأيضاح طبيعة هذه الوحدة المستيكية . فمثال واحد لا يكفي لايضاح هذا الرباط الروحي لذلك يتكلّم الكتاب المقدس عن علاقة البيت بساكنيه وعن الرباط الوثيق بين الكرمة والاغصان ويعطي الزواج مثالاً ، ويبرز الرباط العضوي بين الرأس وأعضاء الجسد . وبالرغم من كل هذا فالأمثلة مجتمعة ومنفردة لا يمكنها ان تعطينا صورة واضحة عن كمال وتمام هذه الوحدة السرية بين المؤمن والمسيح .

نتكلم غالباً عن المحبة التي تربط بين صديقين ولكن أين هو وجه المقارنة بين محبة الصديق بعمقها وصدقها وبين محبة المسيح ؟ الزواج يفرض مسبقاً رباطاً روحياً ، وحدة عظمى . الرأس يرتبط ويتعامل في تناسق مع أعضاء الجسد . لكنّ الصورتين تساعدان قليلاً جداً على

ادراك وحدتنا مع المسيح لان الزواج لا يربط الشخصين الى حد يجعل الواحد ان يكون في الآخر الشيء الذي يحصل بين المؤمنين والمسيح كأعضاء حية في كنيسته. لهذا السبب بالذات يريد الرسول بولس، عندما يكتب عن الزواج قائلاً: « ان هذا السر لعظيم » ويضيف حالاً: « وأعني به سر المسيح والكنيسة » (أفسس ٥ : ٣٢)، يريد ان يبين ان المقصود بالزواج هو زواج المسيح الروحي، الوحدة مع المؤمنين. وفيما يتعلق بالاعضاء، لا شك انها مرتبطة بالرأس وهذه الوحدة هي من المتطلبات اللازمة للحياة. أتنفصم هذه الوحدة؟ ان الاعضاء تموت. وهنا العجب: ان اعضاء المسيح اكثر التصاقاً بالمسيح منها بالرأس والبرهان الشهداء الابرار الذين كانوا يقبلون ان يضحوا أنفسهم مبتهجين. كانوا يضحون بالرأس من اجل المسيح، من اجل الوحدة معه، وكانوا يقبلون بتوتير الاعضاء والجلد والموت من أجل هذه الغاية. فختم هؤلاء أفواههم بقداسة الوحدة ومن اجلها فماتوا لا يتكلمون ولا ينطقون حتى بكلمة يُشتم منها رائحة التذمر وان سطحياً.

سأقول شيئاً آخر اكثر عجباً واستغراباً. أيوجد ما هو أعظم من الوحدة التي يشعر بها الانسان في أعماقه؟ هذه الوحدة هي في المرتبة الدنيا اذا قيست بالوحدة السرية القائمة بين المسيح والروح. لان المسيحي المؤمن يرتبط ويلتصق بالمسيح ارتباطاً أوثق مما بكيانه الذاتي. انه يضع محبة المسيح فوق محبته الخاصة والرسول بولس شاهد على ذلك: « لقد وددت لو كنت أنا نفسي ملعوناً ومنفصلاً عن المسيح في سبيل اخوتي بني قومي من النسب » (رومية ٩:٣) لكي يخلص اليهود فيتمجد اسم الرب أكثر. كانت روحه تشتاق ان تهلك من اجل المسيح. فاذا كانت محبة الانسان للمسيح الى هذا الحد عظيمة أفمن الممكن ان يدرك المرء علو محبة المسيح للانسان وعمقها؟ من نفوس الخطأة التائبين ينسكب

العرفان بالجميل لله ومثال بولس دليل على ذلك . ماذا يقول المرء عن غنى الصلاح الالهي ؟ عجيبة اذاً وفائقة الطبيعة المحبة التي توحّد الانسان بالله وطبيعي ان تكون الوحدة التي هي ثمرة هذه المحبة قوية وعظيمة فلا يستطيع العقل البشري ان يدركها .

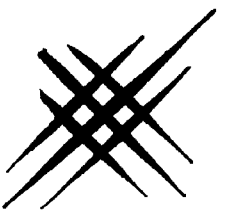

المسيح هو كل شيء

كثيرة هي العناصر الضرورية لحياتنا كالهواء والنور والغذاء واللباس وقدرتنا الطبيعية واعضاء جسدنا . ومع ذلك فاننا لا نستعملها كلها في وقتٍ واحدٍ . حيناً نستعمل هذه وحيناً تلك وفقاً لمتطلبات الساعة . كذلك ايضاً لا يستطيع عنصر واحد ان يغطي كل حاجاتنا ، فاللباس يصلح لحماية الجسد لا لتغذيته ، ولكي نخرس صوت الجوع يجب ان نطلب لنحصل على الغذاء . النور لا يقوم مقام الهواء والهواء مهما كان ثميناً لا يعوّض عن شعاع شمس واحد ، وكذلك أعضاء جسدنا فكثيراً ماتبقى اعيننا وايدينا ساكنة عندما يكون السماع في حركة وذلك لاننا لا نستعمل كل حواسنا في وقت واحد . أصابع اليد صالحة لخدمة حاسة اللمس وعندما نريد ان نشم او ان نسمع او ان ننظر فأننا نستعمل الاعضاء المخصصة لها في الجسد .

ان المخلص هو للأرواح المتحدة به الألف والياء ويتجاوب مع كل رغبة وبه كل القدرة ليرضي ويحقق حتى أعمق ضرورات النفس . انه لا يدع النفس تميل بانظارها او تتجه برغباتها الى شخص غير شخصه والى غرض خارجاً عنه ، لانه يحقق لها ويعطيها كل شيء ولن تحتاج النفس الى شيء الا وتناله من المسيح اذ لا شيء خارجه . انه هو الذي يعطي للنفس الوجود والحياة . يغذيها ويهبها امكانية الانفتاح لترى انه هو

المغذي والغذاء للروح . يعطيها خبز الحياة والوجود وهو هذا الخبز . انه الحياة للذين يعيشون حياة روحية ، والاريج للمؤمنين الذين يستطيعون ان يشموا ويتمتعوا بشذاه الروحي الالهي . انه اللباس الروحي المقدّم للذين يرغبون ان تتشح به نفوسهم والطريق الذي يجب ان نسلكه في حياتنا . انه هو المسدد لخطواتنا لمتابعة رحلتنا آمنين. انه نهاية للطريق ومحطة نقف فيها ومسكن لحياتنا طوال سفرتنا الارضية .

اننا نحن الاعضاء ، والرأس هو المسيح . أنجاهد « الجهاد الحسن »؟ انه يجاهد معنا. أنتقدم في الجهاد؟ انه المجلّي. أنحرز انتصارات روحية؟ المسيح على استعداد ليضفر الاكليل فـــوق رؤوسنا . وهكذا يصبح المسيح محوراً لحياتنا فلا يدعنا نهتم او نلصق قلوبنا الا به . مهما تعددت اتجاهات احلامنا فلن تصادف غير المسيح فهو قمة السمو لأحلامنا السامية . المسيح يحتضن الكل ليحقق كل رغبة من رغباتنا الالهية المقدسة . أين تتوجه الروح ولا يكون المسيح ؟ « ان صعدت الى السماء فأنت هناك وان نزلت الى الجحيم فأنت حاضر واذا أخذت جناحين كالحمامة وطرت الى أقاصي الارض فيدك هناك تقودني وتسندني يمينك ». ان السيد المسيح بسحر رحمته العجيب وبقوة سلطانه على الأرواح يجذبنا اليه ويتحدنا به . ومَثَلُ العشاء الذي صنعه السيد وملأمائدته بالخيرات ليقنع المدعوين بالدخول الى بيته يشير الى هذه القوة العجائبية ذات السلطان الالهي « واحمل من فيها على الدخول ، حتى يمتلىء بيتي » (لوقا ١٤ : ٢٣) .

الحياة الجديدة

تصبح الحياة بالمسيح واقعاً لا في السماء فحسب بل هنا على الأرض للمسيحيين الذين يعيشون فيه بالطبع ، ويعملون وفقاً لمتطلبات الحياة السامية . الحياة في المسيح ممكنة ومحققة لذلك يحثنا الرسول بولس على السير « في حياة جديدة » (رومية ٦ : ٤) .من الضروري ان يشرح ما يجب ان يفعله المسيحي ليحظى بالوحدة مع المسيح التي لا يمكن ان نجد لها تحديداً كاملاً ودقيقاً . يجب ان يتضافر عاملان لتحقيق هذه الوحدة العظيمة الباهرة : النعمة الالهية العاملة أبداً وتقبّل الانسان واجتهاده . ما هو المطلوب من الانسان ؟ ان يتقبل النعمة وان يخضع ارادته لهـــا والاّ يشي بالكنز الذي أئتمن عليه والاّ يطفيء سراج النشاط الذي أشعلته في روحه وألاّ يفعل شيئاً من تلك الأمور المخالفة للحياة بالمسيح ، والتي تقود الى الذبول الروحي والمـوت، . ومصلحتنا الحقيقية تفرض علينا ألاّ ندير سيف الخطيئة ضد نفوسنا وألاّ نهرب من السعادة الروحية والا نرمي اكليل المسيح عـن رؤوسنا . فالمسيح الحاضر دوماً في أرواحنا يغرس « الحياة الجـــديدة » فيها باستمرار وبطريقة لا يعبّر عنها . انه دائماً معنا ويساعـــدنا على تطوير حياتنا الروحية التي أعطاها لنا بالتضحية التي قدمها على الصليب . فـالمسيح حاضر لا كما كان على الأرض،ولا كما كان يتصل بنا على الارض ،بل بطريقة

أكثر كمالاً نصبح بواسطتها اعضاءه ونؤلف معه جسداً وروحاً واحداً . ان تنازله الى هذا القدر يعبر عن رحمته التي لا حدّ لها . لقد أحب رجالاً لا يستحقون محبته ، رجالاً خطأة ، أعداء ، وملأهم بنعمته عندما رآهم يسلكون طريق العودة التائبة . ان وحدة المسيح السرية مع مختاريه لا يمكن ان يعبر عنها وكذلك الطريقة التي تحلّ بواسطتها في النفوس ، نفوس أولئك الذين أحبّهم وأعطاهم نعمته وموهبته كما يليق بالذي يدير الكائنات العجيبة العظيمة .

أبواب السماء

ان الموت الذي ذاقه السيد حقاً لنحيا نحن يتمثل في سر الشكر الالهي الذي به نصير شركاء ومساهمين في حياته لانه بأسرار الكنيسة يتمثل قبر المسيح ويعلن موته . الذين يصيرون مساهمين في الاسرار يولدون من جديد ويعاد تكوينهم بصورة فائقة الطبيعة ويرتبطون ويتحدون بالمخلص . وعندما يعلن الرسول بولس من على صخرة آريوس باغوس أمام اليونانيين ويقول : « به نحيا ونتحرك ونوجد » (أعمال١٧ : ٢٨) يشير الى الفعل العجيب الحاصل بواسطة الاسرار . وفي الواقع ان المعمودية تعطي للانسان الحياة والوجود بالمسيح . تأخذ الانسان الفاسد بالخطيئة ، الانسان الميت روحياً وتدخله الى الحياة الجديدة بالمسيح. والمسحة التي تلي المعمودية فوراً تعطي المعتمد مواهب وافعالاً ضرورية للحياة بالمسيح . وسر الشكر الالهي يحفظ الحياة الروحية والصحة ويركزهما لأن خبز الحياة يعطينا الامكانات لنحفظ هذه الكنوز ولنبقى دائماً في الحياة السامية . بسرّ الشكر الالهي نحيا ، وبالمسحة نتحرك ونعمل اما وجودنا الروحي فنأخذه باديء ذي بدء بالمعمودية .

في الله نحيا وننتقل روحياً من هذا العالم المادي الى العالم السماوي غير المنظور . اننا لا نغير مكاناً بل نغير طريقة الحياة ومناهجها . نحن

لم نتحرك ولم نصعد الى الله بل الله تنازل وقدم الينا . لم نطلبه نحن بل هو الذي جاء يطلبنا . الخروف لم يطلب الراعي بل الراعي طلبه . الدرهم لم يطلب رب البيت بل رب البيت فتش عنه . الخالق هو الذي انحنى الى الارض ووجد الصورة التي تشوهت بالخطيئة . جاء الراعي الى الامكنة التي ضل فيها الخروف واعتق الانسان من الضلالة . لم ينقله من الارض بل جعل الانسان سماوياً . غرس حياة السماء في نفوسنا . لم يأخذنا الى السماء بل بطريقة عجيبة احنى السماء ونقلها الى الارض . تحقق ما كتبه داود النبي « احنى السماء ونزل » (مز ١٧ : ١٠) . ان شمس العدل استعمل الاسرار المقدسة كابواب ليدخل الى هذا العالم المظلم فيميت باشعاعه الالهي حياة الخطيئة من ناحية ويقيم من ناحية اخرى الحياة الروحية الفائقة العالم . ان المسيح « نور العالم » يغلب الخطيئة كما اعلن وقال : « لقد غلبت العالم » (يوحنا ١٦ : ٣٣) ويُدخل الى جسدنا الفاني المائت الحياة الخالدة .

عندما تنسكب اشعة الشمس لتنير احدى الغرف يخبو نور المصباح الضئيل ولا يثير انتباه احد . ان ضياء نور الشمس يسيطر ويسود على كل الانوار البشرية والنور السماوي عندما يدخل الى نفوسنا بواسطة الاسرار يسيطر على النفس ويسودها ويغلب كل جمال عالمي فيها ويقضي على الخطيئة ويطفىء كل رغبة خاطئة وضياء ظاهري . والحياة الروحية التي تتراجع امامها كل رغبة خاطئة وضيعة وينطفىء كل شوق امام شوقها اللاهب هي التي يعنيها الرسول بولس عندما يقول : « اسلكوا سبيل الروح ولا تقضوا شهوة الجسد » (غل ٥ : ١٦) .

رسم السيد هذا الطريق لنسلكه ، وفتح هذا الباب الجديد للحياة الجديدة عندما جاء الى العالم ولم يقفله بعد صعوده الى ابيه بل تركه مفتوحاً لندخله . به يتصل فينا او بالاحرى يكون معنا وسيظل الى منتهى الدهر ليتم كل ما وعدنا به . ان كلمات يعقوب تنطبق على الباب الذي فتحه المسيح للحياة الجديدة : « ليس هذا الا بيت الله وهذا باب السماء » (تك ٢٨ : ١٧) . لا تنزل الملائكة من هذا الباب ، فالملائكة انما يحضرون اثناء اقامة السر بل السيد بذاته . لذلك عندما طلب البريء من الخطأ ان يعتمد من يوحنا السابق لعظيم تنازله فتح السماء حالاً دالاً على ان الانسان يستطيع بالمعمودية ان يرى ويحتل السماء وقد شدد بكل وضوح قائلاً من لا يعتمد لا يستطيع ان يدخل ليرث الحياة الابدية . وبهذه الكلمات جعل المعمودية مدخلاً وباباً ضرورياً على الانسان ان يجتازه . هذا ما رمز اليه النبي داود وهذه هي الابواب التي اشتاقها واشتاق ان يراها مفتوحة «افتح لي ابواب العدل».

كثيرون هم الانبياء والملوك الذين اشتاقوا ان يروا مهندس هذه الابواب الروحية آتياً الى العالم ، ان يروا مؤسس الاسرار وواضعها لذلك يكتب داود ويقول انه اذا اهّل ان يدخل الى الحياة الابدية من هذه الابواب: «اذا ادخلت منها فأني اعترف للرب» سيعترف للرب الذي يجده . كان داود يؤمن انه اذا ادخل من هذه الابواب سيتمكن ان يعرف معرفة افضل صلاح الله وتنازله من أجل الجنس البشري .

اي برهان اعظم من هذا البرهان على صلاح الله ورأفته من ان يرى المرء انساناً خاطئاً يعتق بالمعمودية من كل دنس الخطيئة ، ويصبح بالمسحة ملكاً مهيئاً للملكوت السماوي ، ويصبح شيئاً عجيباً مساهماً في سر الشكر الالهي ومشتركاً بجسد المسيح ودمه ؟ اننا نحن البشر ، بالنعمة الالهية ، نصير آلهة وابناء لله . وقد تشرفت طبيعتنا فصار الله انساناً

وارتفع جسد الانسان، هذا الغبار ، ارتفع الى العلاء حتى صار مشاركاً في العرش للطبيعة الالهية. كل هذا من نتاج محبة الله التي لا تحد ورحمته العظيمة .

أهناك ما هو أعظم من التنازل الالهي؟ انه فضيلة المسيح التي غطت السموات. اعتقد ان التنازل فاق كل خليقة وكل عمل الهي وغلب كل شيء فيما يتعلق بالمدى والجمال الروحي . اعمال الله كلها كثيرة وصالحة وعظيمة . عظيم هو فنّه ، وحكمته لا حدّ لها . انه يستطيع ان يخلق مخلوقات أخرى أعظم وأجمل ولكن اسمى تعبير عن عظمته هو هذا الصلاح ، صلاحه . ان عمل الله الدائم هو اعطاء خيراته ومن أجل هذا يفعل كل شيء .

جعل الله الغاية من وجودنا التشبه به لنصير شركاء في خيراته الأبدية . لا يوجد تعبير عن صلاحه الالهي أعظم من هذا التعبير . ويظهر غنى هذا الصلاح في عمل الرب الخلاصي. واننا مدعوون لنندهش لصلاح الله العظيم ونعجب . لم يعط الله الطبيعة البشرية قسماً معيناً من الخيرات ولم يبقِ القسم الآخر خاصاً به بل أعطى « كمال اللاهوت » (كولوسي ٢ : ٩)، كل غناه الالهي . لذلك يقول الرسول بولس ان التبرير ، اي الخلاص الذي وهبه الله للانسان، ينكشف ، يصبح حقيقة بالانجيل لان كل جمال الفضيلة والنعمة الالهية يظهر ، خاصة عندما يصبح البشر شركاء في الصالحات وفي غبطته الخاصة . لذلك نستطيع ان نسمي اسرار الكنيسة أبواب النعمة والخلاص ، ورحمة الله التي لا تحدّ وصلاحه غير المتناهي هما اللذان فتحاها لندخلها .

الخلاص بالمسيح

كيف غلب المسيح وركّز راية الغلبة الأبدية وفتح لنا الطريق والباب الموصلين الى السماء ؟ لم يخطف اسرى الخطيئة عنوة بل أعطى حياته بدلاً وربط القوي (الشيطان) وملك على نفوس البشر بعد ان قضى على طغيان العدو ، لا لانه يملك القوة بل لانه بتضحيته وموته أعطيت له سلطة القضاء على اعمال الشيطان عدلاً وحقاً . وقد كشف النبي هذا العدل بقوله : « عدل وحكم تهيئه عرشك » (مز ٨٨ : ١٥) .

ان العدالة الالهية لم تفتح فقط أبواب الخلاص بل ظهرت من خلالها للجنس البشري لانه لم يكن بالامكان ، في الاجيال الغابرة ان يجد الانسان عدلاً قبل ان يتجسد المسيح . فالله ذاته الذي لا تخفاه خافية ككلي المعرفة ، فتش ليجد وقتئذ عدلاً على الارض فلم يجد « الكل زاغوا والتطخوا وليس من يعمل صلاحاً حتى ولا واحد » (مز ١٣ : ٣) ولكن عندما أشرقت الحقيقة وأنارت الذين في الظلام وضلال الكذب ظهرت العدالة من السماء بصورة كاملة وحقيقية للناس . وهكذا تبررنا نحن ، أعني اعتقنا من الجريرة ومن رباط الخطيئة . حكم على البريء من الخطأ بالموت على الصليب وهو الذي لم يفعل ظلامة واحدة . دِينَ من اجل الخطايا التي ارتكبناها نحن وأصبحنا بموت السيد ، نحن الخطأة ،

ابراراً واصدقاء لله . فالخلاص لم يقضِ على طغيان الشيطان فقط ولم يصالحنا مع الآب فحسب بل أعطانا في الوقت نفسه «ان نكون اولاداً لله » (يوحنا ١ : ١٢)ولما كان قد وحّد طبيعتنا بألوهته فأنه باسرار الكنيسة وحّد كل واحد منا مع ذاته وبهذه الطريقة وهبنا نعمته وحياته . الخلاص الحقيقي اذاً يذوقه الانسان وينالـه بالأسرار التي أسسها السيد .

تكن له القوة التي تخلّص الانسان . فلو كانت لهذه الرسوم والرموز والصور في العهد العتيق القوة لتهب الغبطة المرغوبة لما كان للحقيقة والخلاص اللذين وهبهما الله من داعٍ واذا كان البشر قبل الذبيحة الصلبية اصدقاء لله وابراراً فلماذا أراد الرب بموته ان يقضي على العداوة ويهدم الحائط المتوسط بين الله والبشر الذي أوجدته الخطيئة ، وان يهب الخلاص ويوطد السلام ؟

عصر العبودية

في ذلك الزمان كان ناموس موسى أمّا الآن فالايمان بالمسيح ونعمة الروح القدس وكل ما يتبع النعمة التي تربطنا بالله . في ذلك الزمان كان عصر عبودية أمّا اليوم فالذين يرتبطون بالمسيح يتصلون بالله كأصدقائه وابنائه. ان الناموس أعطي في العهد القديم للعبيد أمّا النعمة والايمان والجرأة فصفات من صفات المسيحيين ، أصدقاء الله وأبنائه . وكما كان ينبغي ان يكون « البكر بين الأموات » (كولوسي ١ : ١٨) أي ان يقوم ذاك ليقوم كل الأموات ، كذلك وبالطريقة نفسها صار صورة للقداسة والعدالة عند البشر . يشدد الرسول بولس على هـــذه الحقيقة الاساسية عندما يكتب للعبرانيين: «دخل يسوع من أجلنا سابقاً لنا وصار حبراً للأبد» (عب ٦ : ٢٠) . دخل الى قدس الأقداس بعد ان قدّم نفسه ضحية لأبيه . دخل وأدخل معه الى هذه الأقــداس كل أولئك الذين صاروا شركاء في موته بالمعمودية وأخذوا النعمة بالمسحة المقدسة واشتركوا في سر الشكر الالهي وتناولوا من كأس الحياة المقدسة. وبهذه الأسرار التي هي بمثابة أبواب السماء يُدخل المسيح المؤمنين الى ملكوتــه ويتوجهم بالأكليل الذي لا يذبل .

قيمة الاسرار

هذه الابواب، أعني الاسرار الكنسية، لها قيمة اسمى وفائدة اجل مما
لابواب الفردوس. ابواب الفردوس تنفتح امام اولئك الذين يلجون ابواب
الاسرار اولاً وابواب الاسرار انفتحت عندما كانت ابواب الفردوس
مقفلة . انفتحت ابواب الفردوس مرة وانقفلت تاركة خارجاً قوات
الظلام ، اما الاسرار هذه الأبواب السرية فانها تُدخل ولا تخرج احداً.
كان من الممكن أن تنقفل الابواب التي للفرودس كما انقفلت زمناً طويلا
اما فيما يتعلق بالاسرار فقد سقط بها الحجاب والحائط المتوسط ، قد
انهدم ولم يعد بالامكان ان يقام حاجز وان يفصل جدار بين الله
والانسان .

لم تنفتح السماء فحسب بل انشقت كما يقول لوقا الانجيلي ليبرهن انه
لم يبقَ امام الداخلين لا باب ولا حجاب . فالمسيح الذي صالح ووحّد
العالم العلوي مع العالم السفلي ووطد السلام وازال الحاجز المتوسط « لا
يستطيع ان ينكر ذاته » (٢ تيمو ٢ : ١٣) كما يقول الرسول بولس.
ان ابواب الفردوس التي كانت مفتوحة لآدم في البدء انقفلت والعدل يقضي
بأن تقفل ما دام آدم لم يرد ان يبقى في حالة البراءة التي مُنحها عندما
خرج من يد الخالق . وهذه الابواب المقفلة (ابواب الفردوس) في وجه

الانسان الساقط فتحها المسيح بذاته الذي لم « يفعل خطيئة واحدة » (١ بطرس ٢ : ٢٢) « وعـدله الى دهر الداهرين » (مز ٩ : ٣) .

المسيح فتح ابواب الفردوس ومن الضروري ان تبقى مفتوحة وان تدخل المسيحيين الى الحياة الابدية ولا خوف من السقوط كما سقط آدم الذي خسر الفردوس الارضي لان المخلص يقول: « انا اتيت لتكون لكم حياة » (يوحنا ١٠ : ١٠) فالحياة التي حملها السيد تعطى لنا بواسطة الاسرار التي نصبح بها شركاء في الآلام والموت. فمن لم يشترك بالاسرار لا يتمكن من الهرب من الموت الروحي والذين لم يعتمدوا ولم يتناولوا جسد المسيح ودمه لا يستطيعون ان يرثوا الحياة الابدية .

ثمار الظفر الالهي

لا يمكن للانسان ان يعيش في وحدةٍ مع الله اذا لم يمت مسبقاً . ولكن الله يستطيع ان يجعل الانسان أهلاً بأن يميت حياة الخطيئة . وتفرض العدالة ان يصارع الانسان وان يغلب الخطيئة وحده ما دام قد سقط بارادته في الخطيئة . لكن بعد ان صار عبداً للخطيئة لم يعد بامكانه ان يتغلب عليها بقواه الخاصة . فالخطيئة بعد السقطة صارت سيدة وصار الانسان عبداً . أكان بالامكان ان يظهر الانسان أقوى من الخطيئة ما دام « ليس عبد أفضل من سيده » ؟ (يوحنا ١٣ : ١٦) لقد صار عبداً تحت أقدام الخطيئة من كان مفروضاً ان يكون الغالب الظافر .

لم يكن ممكناً ان تشرق الحياة الروحية الحقيقية حيث كان سلطان الخطيئة يمتد ، كان على الانسان الذي سقط بارادته في الخطيئة ان ينصب وحده رايات الظفر ضد الخطيئة . الله وحده يملك هذه القوة لتحقيق مثل هذا الظفر العظيم وليظهر ظافراً أبدياً . لذلك صار انساناً . وهكذا اتحدت الطبيعتان الالهية والانسانية في شخص السيد . اتحد الانسان المفروض عليه ان يغلب الخطيئة والله الذي له القوة لاحراز هذه الغلبة . فالمسيح يجعل الصراع من اجل الانسان صراعه الشخصي لأنه انسان أيضاً وكبريء من الخطأ يغلب الخطيئة لانه في الوقت نفسه كلي

القدرة . هكذا تحرر الانسان من العبودية والعار وتكلل باكليل الظفر وسقطت مملكة الخطيئة والآن بعد غلبة المسيح يتحرر الانسان بسهولة من عقالات الخطيئة .

ان المخلص يعطي للمؤمنين القوة ليميتوا حياة الخطيئة ويصبحوا شركاء في الظفر العظيم . كان من العدل ان ينال المخلص الاكليل وان يظهر كغالب بعد ان نصب راية الظفر ضد الخطيئة . ان السيد المسيح سمّر على الصليب من اجلنا نحن الخطأة وتحمّل الآلام والجراحات التي فتحتها المسامير وذاق حتى مرارة الموت «وتخلى عما عرض عليه من هناء وتحمل الصليب مستخفاً بالعار» (عب١٢ : ٢) يقول الرسول بولس. انالسيد لم يفعل ظلامة واحدة « خطيئة واحدة لم يفعل »لقدبقي خلواً من الخطيئة بريئاً . لذلك لم يستطع الشيطان النمام الوقح ان يجد علة يهاجمه بها ويتهمه والموت نفسه لم يكن له سلطان عليه لان الجرح والألم والعذاب والموت، هي من نتاج الخطيئة وثمارها. فلو لم تدخل الخطيئة الى عالم الانسان أكان الله قبل ان يسمح بالموت وهو الجزيل الرحمة ؟ ان ايماننا بصلاح الله يتنافى منطقياً مع اعتقادنا ان الصلاح الالهي يحب ان يرى حكم الموت المرعب ممتداً ومسيطراً على العالم . بعد سقطة الانسان سمح اللهبالموت لا كقصاص عن الخطيئة بل كدواء للرجل الضعيف بسبب الخطيئة وبما ان الموت لم يكن له سلطان على السيد لانه كان بريئاً من كل خطيئة فالمخلص شفى بموته مرضنا الروحي بدوائه الابدي الكلي القدرة. ان قوة الموت على الصليب تعطي لنا القوة لقتل جرثومة الخطيئة لان جرح البريء من الخطأ ارضى العدالة الالهية من اجلنا نحن المؤمنين .

نبع النعمة والخلاص

ان الترضية التي قدمها السيد بذبيحته السرية على الصليب كانت جد عظيمة وفوق ما يطلبه دَيْن الخطيئة . فهي لم تحررنا من الجريرة والحكم فحسب بل وهبتنا غنى خيرات لا تثمن . لقد اهلتنا لان نصعد حتى الى السماء وان نصير شركاء ومساهمين في ملكوت الله . وانى للانسان ان يفكر اننا كنا قبلا اعداء لله بسبب الخطيئة وعبيداً للاهــواء يملؤنا الخزي والعار ؟ لا أحـــد يستطيع ان يستوعب اتساع ذبيحة السيد وقيمتها. يا لعظم شرف الموت على الصليب لقد قبــل المخلص تنازلاً ان يباع الى صالبيه بثلاثين من الفضة. صار فقيراً كم أهين وبيع من اجلنا. وهنا العظمة . كانت الاهانة التي تحمّلها ربحاً لنا . مات باختياره دون ان يظلم أحداً لا في حياته الخاصة ولا في حياته العامة . صار بموته نبعاً للنعم حتى لجالديه .

ولماذا كل هذا التبسط في الموضوع ؟ ان الاله الانسان قد مــات . والدم الذي اريق على الصليب هو دم الاله الانسان . اهناك ما هـــو افظع وما هو اثمن من موت الاله الانسان ؟ كم كان ثقل خطيئتنا كبيراً حتى احتاج الى هذا الموت لارضاء العدالة الالهية ؟ وكم كان الجرح عميقاً حتى احتاج الى فاعلية الدواء القوي النابع من ضحية الانسان الاله على

الصليب ليشفى ؟ كان من الضروري لكي نقضي على سلطان الخطيئة ان يعاقب انسان ما . كان من الضروري ان نتحمل نحن عقاباً يوازي ثقل الخطيئة التي ارتكبناها حتى ننعتق من المسؤولية والجريمة لم يكن بين البشر انسان خال من الخطيئة ليستطيع ان يتألم من اجل الجميع حق ولا الجنس البشري كله ولو مات الوف الميتات بأمكانه ان يقوم بهذا العمل. ما قيمة موت عبد مليء بالعار والفساد ، عبد حطم الصورة الملوكية واهان العظمة الالهية اهانة كبرى ؟ لذلك حمل السيد البريء من الخطأ ، الانسان الكامل ، آلاماً كثيرة وقبل الجراحات ومات ودافع عن الجنس البشري واعتق جنسنا من مسؤولية جريمة الخطيئة العظمى واعطى العبيد الحرية التي لم يكن بحاجة اليها كاله وسيد . كل ما قيل قد قيل ليبرهن على ان الحياة الحقيقية تعطى لنا بواسطة موت المخلص .

مساهمو الجوائز

عندما نشترك في الاسرار فاننا نجعل حياة المسيح حياتنا وتعطي المعمودية والمسحة المقدسة وسر الشكر هذه الحياة . وعندما نصبح مساهمين في الاسرار الالهية يدخل المسيح الى نفوسنا ويسكن فيها ويلتصق ويتحد ويحل الخطيئة الموجودة في النفس ويعطيها حياته ويجعلنا شركاء له في ظفره (يا للصلاح !) ويعلننا غالبين ظافرين . ان الغلبة والاكليل هما نتيجة الآلام والعرق . لماذا نظهر غالبين في اشتراكنا في الاسرار وننال الاكاليل والجوائز ؟لانه وان كنا لا نتعب ولا نجاهد فاننا باشتراكنا في الاسرار نمجد جهاد المسيح ونعجب بغلبته ونسجد للراية ونظهر محبة حارة لا توصف نحو الغالب والظافر الابدي. ان كلومه وجراحاته وموته هي كلومنا وجراحاتنا وموتنا ونصير جسداً واحداً مع جسد المسيح الذي مات وقام لذلك نتمتع بالخيرات النابعة من جهاد المسيح وموته .

لنفرض ان مجرماً طاغياً قد وقع في يد العدالة . لا شك ان الموت سيكون من نصيبه . ماذا يكون الحكم على انسان يتقدم من المحكمة ليدافع عن الطاغي وعن جرائمه ويطلب اخلاء سبيله ويكيل له المدائح ويعتبر ان الحكم على الطاغي البريء حكم عليه وان المحكمة قد تجردت من

كل وجدان وصورت القوانين ظلماً وتعسفاً ؟ تصوروا انساناً كهذا واحكموا انتم على فعله. ألا يستحق من يدافع عن المجرم بوقاحة وصفاقة وجه الحكم الذي يستحقه المجرم ؟ لنأخذ الصورة المعكوسة . تصوروا انساناً خيّراً صالحاً تمكن ان يحوز على اكليل الظفر وانساناً آخر يفرح بهذا الانسان فرحه بنفسه ، يتهلل ويفرح ويركع على الارض اجلالاً واحتراماً، يضمه الى صدره ويقبله، ألا يستحق هذا الانسان ان يكون شريكاً في مجد هذا الانسان الصالح ؟

اننا نحمّل الاشرار مسؤولية نواياهم واعمالهم، ترى لماذا لا نعطي وزناً لكل عمل صالح وتعبير خيّر ؟ من الضروري ان نضيف ما يأتي : لا يحتاج المسيح الذي نصب هذه الراية الى جوائز ، انما يرغب ويرجو ان يرى اكليل غلبته فوق رؤوسنا. لماذا نرفض ان نحوز على الاكليل الذي احتاج للحصول عليه الصراع الطويل المضني؟ لماذا نرفض ان نناله بدون تعب واخطار ؟ ان المعمودية تهب لنا هذا الاكليل وكذلك المسحة المقدسة والاشتراك في دم يسوع المسيح وجسده . عندما نصير شركاء في الاسرار نستنكر الظالم ، الشيطان ونتهمه ونبصق عليه، وفي الوقت نفسه نمدح المسيح الغالب ونعجب به ونسجد له ونحبه من أعماق قلوبنا.

من الواضح ان المسيح جاهد وغلب من أجلنا . قبل الموت لنغلب نحن ، لذلك أسس الاسرار . أسسها لنأخذ بواسطتها اكليل الظفر ضد الخطيئة . ما نفعله نحن هو اظهار رغبتنا ونيتنا الصالحة في قبولنا المعمودية بايمان، اما المسيح فلا يعطينا اكليلاً ومجداً نحن المعمدين فقط بل يعطي ذاته مكللاً وغالباً أزلياً . في الواقع عندما نخرج من جرن المعمودية نحمل المسيح في أرواحنا وعيوننا ورؤوسنا . نحمل المسيح البريء من الخطأ وحده ، الغريب عن كل فساد ، نحمله كما قام تماماً من بين الاموات وظهر الى تلاميذه وصعد، المسيح الذي سيأتي ليطالبنا بهذا

الكنز الذي لا يثمّن. المسيح وحده يملك المدخل الى الحياة الحقيقية. وكما ندخل الهواء والطعام بواسطة الاعضاء لنقوي جسدنا كذلك، وبالطريقة نفسها، يدخل المسيح الى أرواحنا ويصير لها أريجاً وعطراً وغذاءً. ان روحنا تتنشق المسيح وتتغذى به. وهكذا نصبح مع المسيح جسداً واحداً، ويصير المسيح لنا كالرأس لأعضاء الجسد. ولان المسيح هو رأسنا لذلك نصير شركاء في خيراته. وخيرات الرأس توزع على كل الجسد. عندما كان المسيح يكافح ويقبل الجراحات والموت وحيداً لم يشركنا في آلامه. وعندما أراد ان يتوج باكليل الظفر لم يرد ان يبقى وحده بل دعانا جميعاً لمشاركته في الاكاليل وخيرات الظفر جميعها. وهذا برهان على محبته واحسانه غير المتناهي لاننا بعد موت الصليب اتحدنا بالمسيح. قبل ضحية السيد لم يكن الاشتراك مع المسيح ممكناً. فالمسيح كان الابن الحبيب وكنا نحن عبيداً خطأة، أعداءً لله، ولكنه عندما مات واعطى البدل وقضى على اغلال الشيطان نلنا حريتنا وصرنا ابناء لله بالنعمة واعضاء لرأس المسيح المغبوط. والآن ان خيرات الرأس هي خيراتنا وفي هذه الحياة ننعتق من ثقل الخطيئة ونصير مساهمين بكل مواهب المسيح بواسطة الاسرار، ونحيا حياة المسيح بمناولة جسده ودمه وسنكون في الحياة المستقبلة آلهة حول الله وارثين ومالكين مع المسيح. لكي نربح الحياة المستقبلة علينا ان نساهم، او بالأحرى ان نقبل نعم المسيح والا نطرح عن رأسنا اكليله الذي حاكه بالألم والعرق. هذه هي الحياة التي ننالها بالاسرار وللحصول عليها على الارادة البشرية ان تسهم مساهمة فعّالة.

الاسرار توحدنا بالمسيح

ان الاسرار المقدسة تهب الحياة في المسيح . لقد بحثت هذه الحقيقة آنفاً بحثاً مشدداً . سنبحث الآن كيف يقود كل سر الى هذه الحياة . فالحياة في المسيح هي وحدتنا به . بأية طريقة توحد الاسرار المؤمنين بالمسيح ؟ هذا السؤال يحتاج الى جواب .

لكي نتحد بالمسيح علينا ان نتألم الالم الذي قاساه . ذاك اخذ دماً وجسداً خاليين من كل خطيئة وألّه الطبيعة البشرية التي لبسها بما انه اله . مات كانسان وقام من القبر كاله قادر على كل شيء . فمن اراد ان يتحد به عليه ان يتناول جسده وان يشترك في طبيعته الالهية وموته وقيامته . لذلك نعتمد لنصير شركاء في موت المسيح وقيامته . وبعد المعمودية المقدسة نأخذ المسحة المقدسة لنصير مشاركين في طبيعته الالهية المقدسة ، ونأكل بعد ذلك جسده ونشرب دمه في الكأس المقدسة لنصير شركاء في الجسد الذي اتخذه عندما صار انساناً وهكذا نتحد بمن تجسد من اجلنا وألّه الطبيعة البشرية ومات وقام .

لماذا لا نتبع الطريق الذي سلكه المسيح بل نبتدىء من حيث انتهى وننتهي من حيث ابتدأ؟ لان المسيح نزل الى الارض ليصعدنا الى السماء ، فنزوله صار صعوداً لنا . نزل السلم من السماء الى الارض وصارت

الدرجة الاخيرة من السلم نقطة بـــداية لصعودنا نحو السماء . لم يكن بالامكان غير ما كان لان المعمودية ولادة والمسحة المقدسة فعل وحركة بالنسبة لنا . اما خبز الحياة وكاس الشكر « فشراب ومأكل حقيقيان» (يوحنا ٦ : ٥٦) .

لايمكن ان يتحرك الانسان ولا ان يموت قبل ان يولد : فالمعمودية تصالح الانسان مع الله ، والمسحة تعطي مواهب الروح القدس ، وسر الشكر يجعل المؤمن يتناول جسد المسيح ودمه ، ومن الصعب ان يقف المرء قبل المصالحة حيث يحق لاصدقاء الله ان يقفوا وان يستأهل المواهب التي تعطى للاصدقاء وان يتناول صاحب الضمير الشرير جسد المسيح ودمه . لذلك نعتمد اولاً ثم نمسح لنصبح انقياء مـن كل خطيئة ، يملؤنا اريج الروح ثم نتقدم الى المائدة السرية لنتناول الشركة المقدسة .

المعمودية

ان اقتبال المعمودية يعني بالضبط الولادة حسب المسيح ، قبـــول الكيان بالذات ، ان نخلق من العدم ، ويمكننا ان نعرف ذلك بالعديد من الأدلة . اولاً : من الترتيب الذي تحظى به ، انها تتم اولاً وقبل كل الاسرار وبها يدخل المسيحيون الى الحياة الجديدة. ثانياً: من الاسماء التي نعطيها لها . ثالثاً: من الطقوس والاناشيد المرعية اثناء اتمامها. الترتيب هو كما يأتي: اولاً الغسل، ثانياً مسحة الميرون، وأخيراً الوليمة الشكرية. والبرهان القاطع على ان الغسل هو المبدأ والشرط الاولي لهـذه الحياة يقدمه السيد نفسه. ان السيد قبل بدئه بعمله الخلاصي وتحمله الآلام من أجلنا قبل المعمودية اولاً. أيمكن ان يكون للالقاب التي نعطيها للمعمودية معان مختلفة: ولادة ، اعادة الولادة ، اعادة تكوين ، الختم ، الحمام، اللباس، المسحة ، الموهبة ، الاستنارة ، المعمودية ؟ ان كل هـذه الالقاب تعني شيئاً واحداً أي الذين يعيشون حسب الله باقتبالهم لهذا السر كشرط أساسي لهذه الحياة ، ويبدو لي ان كلمة « ولادة » لا تعني الا ما تعنيه كلمة « اعادة الولادة » ، وكلمة اعادة تكوين لا تعني الا مـا تعنيه « الولادة » و « اعـادة الولادة » أي اعـــادة ولادة أولئك المولودين والمبروئين الذين فقدوا شكلهم فأعادوا شكلهم الاول . حدث ما يحدث مع تمثال مشوه اعاد اليه الفنان شكله الاول. المعمودية هي الفنان الذي

الدرجة الاخيرة من السلم نقطة بـــداية لصعودنا نحو السماء . لم يكن بالامكان غير ما كان لان المعمودية ولادة والمسحة المقدسة فعل وحركة بالنسبة لنا . اما خبز الحياة وكاس الشكر « فشراب ومأكل حقيقيان» (يوحنا ٦ : ٥٦) .

لايمكن ان يتحرك الانسان ولا ان يموت قبل ان يولد : فالمعمودية تصالح الانسان مع الله ، والمسحة تعطي مواهب الروح القدس ، وسر الشكر يجعل المؤمن يتناول جسد المسيح ودمه ، ومن الصعب ان يقف المرء قبل المصالحة حيث يحق لاصدقاء الله ان يقفوا وان يستأهل المواهب التي تعطى للاصدقاء وان يتناول صاحب الضمير الشرير جسد المسيح ودمه . لذلك نعتمد اولاً ثم نمسح لنصبح انقياء من كل خطيئة ، يملؤنا اريج الروح ثم نتقدم الى المائدة السرية لنتناول الشركة المقدسة .

المعمودية

ان اقتبال المعمودية يعني بالضبط الولادة حسب المسيح ، قبـــول الكيان بالذات ، ان نخلق من العدم ، ويمكننا ان نعرف ذلك بالعديد من الأدلة . اولاً : من الترتيب الذي تحظى به ، انها تتم اولاً وقبل كل الاسرار وبها يدخل المسيحيون الى الحياة الجديدة. ثانياً: من الاسماء التي نعطيها لها . ثالثاً: من الطقوس والاناشيد المرعية اثناء اتمامها. الترتيب هو كما يأتي: اولاً الغسل، ثانياً مسحة الميرون، وأخيراً الوليمة الشكرية. والبرهان القاطع على ان الغسل هو المبدأ والشرط الاولي لهـذه الحياة يقدمه السيد نفسه. ان السيد قبل بدئه بعمله الخلاصي وتحمله الآلام من أجلنا قبل المعمودية اولاً. أيمكن ان يكون للالقاب التي نعطيها للمعمودية معان مختلفة: ولادة ، اعادة الولادة ، اعادة تكوين ، الختم ، الحمام، اللباس، المسحة ، الموهبة ، الاستنارة ، المعمودية ؟ ان كل هـذه الالقاب تعني شيئاً واحداً أي الذين يعيشون حسب الله باقتبالهم لهذا السر كشرط أساسي لهذه الحياة ، ويبدو لي ان كلمة « ولادة » لا تعني الا ما تعنيه كلمة « اعادة الولادة » ، وكلمة اعادة تكوين لا تعني الا مـا تعنيه « الولادة » و « اعـادة الولادة » أي اعـــادة ولادة أولئك المولودين والمبروئين الذين فقدوا شكلهم فأعادوا شكلهم الاول . حدث ما يحدث مع تمثال مشوه اعاد اليه الفنان شكله الاول. المعمودية هي الفنان الذي

أعاد للانسان شكله وهيئته وطبع صـــورة في النفس وتحت شكلا وجعلها مطابقة للمسيح بالموت والقيامة . ومن أجل ذلك تسمّى ختماً يدمغنا على صورة الملك وشكله المغبوط. وبما ان الشكل يكتنف المادة ويقضي على عدم شكلها كذلك السر لباساً أو معمودية يعطيها شكلا ، وقد أشار الرسول بولس الى ذلك فـأكّد ان المسيح يطبع في أرواح المسيحيين صورته وشكله وكذلك يسترهم بلباس رمزي. وان المستنيرين حديثاً لبسوا وتعمدوا « يا بنيّ ، أنتم الذين أتمخض بهم مرة أخرى حتى يُصوَّر فيهم المسيح » (غلا ٤ : ١٩) وايضاً : « أنـتم الذين خُطت نصب أعينهم صورةُ المسيح المصلوب » (غـلا ٣ : ١) ويكتب الى أهل قورنثية : « أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح لبستم » .

ان الذهب والفضة والنحاس تبقى مادة وتسمّى كذلك ما دامت في حالة الانصهار ، ولكنها عندما تتحول الى اشكال مختلفة تحت ضربات المطرقة لا تبقى مادة خاماً بل مادة ذات شكل فنقـول مثلا تمثالاً ، حلقة ، ديناراً ... اسماء لا تستهدف المادة كمادة بل شكلها ، وهكذا الحال ايضاً مع اللباس حول الجسد . وقد تكون تسمية اليوم الخلاصي من قبل المسيحيين بيوم التسمية ناتجة عن خلقتنا بالضبط في هذا اليوم وتشكيلنا وحصول النفس على شكل ووجود بعد ان كانت قبلا غامضة ومبهمة وبدون شكل ، بالاضافة الى اننا عرفنا من الذي يعرف خاصته كما يقول بولس الرسول : « عرفنا الله بل عرفنا الله » (غلا ٤ : ٩) . ان تكون معروفاً يعني ان يعرفك الله ، لذلك يعلن داود قائلا عن أولئك الذين لا رابط مشترك يربطهم بهذه الحياة : « ان شفاهي لاتذكر اسماءهم » لان الذي يبقى بعيداً عن هذا النور يبقى مجهولاً وغير منظور. لا شيء يظهر للعين بدون النور ولا يعرف الله أحداً اذا لم يقتبل خواص المعمودية ، والسبب هو عدم وجوده بالنسبة للحقيقة ، عدم وضعه في

النور بواسطة هذه الشمس . والمقصود من القول : « ان السيد يعرف خاصته » (تيمو ٢ ١١ : ١٩) « المخلص لا يتعرف على العذارى الجاهلات » (متى ٢٥ : ١٢) هو ما ذكرنا .

المعمودية استنارة لانها تعطي الكيان الحقيقي وتجعلنا معروفين من الله وتقود الانسان وتبعده عن الظلمة الشريرة وتمنح أيضاً النور ، ولهذا سميت حمام النور ، لانها تنير الانوار في نفوسنا لتبعد كل غيمة من دنس تتوسط بيننا وبين الشعاع الالهي ، وتهد كل حائط متوسط بيننا وبين الله .

المعمودية موهبة لانها ولادة . من يستطيع ان يحمل فكرة عن ولادته ؟ يحدث في الولادة الروحية ما يحدث في الولادة الطبيعية . حتى الارادة نفسها لو حاولت ان تعرف خيرات العمادة قبل حدوثها لما تمكنت . ان نريد يعني ان نتذكر والتذكر غير ان نريد . القلب البشري لا يمكنه ان يصعد او ان يفكر قبل ان يمر بالتجربة . عندما نسمع الكلام عن الحرية وعن الملكوت السعيد نفكر بحياة يتصورها العقل البشري مع ان الحياة التي تهبها المعمودية تفوق كل ادراك بشري وكل رغبة من رغباتنا الانسانية .

يقال عن المعمودية ايضاً انها مسحة لان الممسوح عنّا ، المسيح ، ينطبع في من يتمّمها . والختم يعني المسيح المخلّص الذي يختم النفوس ، والمسحة الشاملة لكل اقسام الجسد تحدد الهيئة وتبقى كختم أصيل .

مما تقدم يستنتج ان الختم مرادف للولادة ، والثياب والتغطيس للختم . ومن ناحية أخرى ما دامت الاستنارة والغسل والموهبة المجانية مرادفة لخلقة وولادة تصبح كل الالقاب التي تعطى للمعمودية واحدة تقود الى الشيء ذاته ، تقود لان نعرف ان هذا الغسل الروحي يحدد الولادة وانه بداية الحياة في المسيح لأرواحنا .

احتفال المعمودية

أولئك الذين قبلوا هذا السر هم على الغالب في وضع يسمح لهم ان يعرفوا ان الكلام والمراسم التي ترافق اتمام السر ترمي الى هدف واحد وواضح ان المتقدم الى السر لا يكون قبل اقتبال المعمودية لا مصالحاً مع الله ولا معتقاً من العار القديم . لذلك وقبل المباشرة باتمام السر يضرع متمم السر ان ينعتق المستنير من الشيطان المتسلط عليه . ولا يخاطب متمم السر الله وحده بل ينهال على العاتي موبخاً ويطرده بالسوط جالداً . و«الاسم الذي يفوق كل اسم» هو السوط الذي يستعمله .

انه لفائق العجب ان يصبح الموعوظ في الحياة ابناً ووارثاً بالمعمودية وهو الذي كان قبل لحظات عبداً للشيطان . قد يتمكن ان يبعد الشيطان عن الله من ارتبط بالله . وهذا يعادل الموت الكلي . لذلك ينفخ الكاهن في وجه المتقدم للحصول على الحياة والنفخة ترمز للحياة الحالة من فوق. ثم يكمّل ما تبقى كما يأتي: نرفض الحاضر وكل ما نمسكه بأيدينا ونتجه الى حقائق جديدة ويشعر الموعوظ بالزهمة لاحتقار العالم وتقدير عالم آخر . يتنكر لحياة ليحتضن أخرى ، يهرب من معلم حياة ليفتش بحرارة عن معلم حياة أخرى . وبتنكره للماضي يدل على ما يشعر به وقت دخوله بالنعمة . وبتفضيله لما يقدمه له السر على الماضي يبرهن انه بالمعمودية يبتديء بالحياة الجديدة التي تهمنا .

عندما يدخل الموعوظ الى الكنيسة ينزع ثيابه ويخلع حـــذاءه . الثياب والحذاء من مستلزمات الحياة الحاضرة وترمز الى الحياة السابقة. ثم يتجه نحو الغرب وينفخ نفخة من فمه وتعني هذه النفخة حياة الظلمة. ثم يمد يديه كأنه يدفع الشيطان الحاضر المهاجم ويبصق في وجهه كروح خبيث قذر ويتنكر لكل ارتباط كافر مدمر مسبب لكل شر، ويقطع قطعاً جازماً صداقة مليئة بالمرارة ويعترف بكرهه للشيطان . وبهربه من الظلمات يركض الى النـــور . يتطلع الى الشرق وينادي الشمس وبانعتاقه من مخالب الظالم يعبد الملك. يدفع التنين ويعترف بالمعلم الصالح الشرعي ويعده بالطاعة والاخلاص ويتعهد ان يؤمن به قبل كل شيء ويعترف به . بدء هذه الحياة السعيدة هي معرفة الله الحقيقية «معرفتك هي أساس الخلود » يقول الحكيم سليمان . اما جهل الله فقاد الى الموت. بما ان آدم قد جهل كثرة رحمة الله ونظر الى الصالح كما الى حسود واخطأ في فهم الحكمة ، في فهم الله الحكيم فقد التحق بالنار واستعبد للعبـــد الزائل وبالتالي طرد من الفردوس وحرم من الحياة وتألم ومات . من تاق الى الحياة فعليه ان ينقاد بالله ليفهم الله بالمعرفة .

ان التعري دفعة واحدة حتى من اللباس الاخير يدل على قطعنا كل علاقة بالحياة الحاضرة وارتباطنا بالفردوس. ان آدم بعد ان خلع لباس الغبطة تعرى وانتهى الى هذا المصير الشقي ؛ونحن بتركنا لهذا اللباس الجلدي وبتعرينا نقوم بالعمل المعكوس. اننا نعود الى الوراء لكي نلبس الوشاح الملوكي ونصعد الى من كان نقطة انطلاقنا بالطريق التي سلكها آدم في سقوطه الى الارض . والتعري يعني انك تسير الى النور الحقيقي وانت لا تحمل شيئاً لان ظل الموت وكل ما يفسد على النفوس الاشعة الالهية ،كالثياب ،حجاب قائم بين النور والاجساد . لا شك ان المسحة بالزيت لها رمز خاص ولكنها تتضمن المعنى الآتي : انها تذكّر بسلّم

يعقوب الذي بعد ان مسحه بالزيت اعترف للرب . تذكر بالملوك والكهنة الذين كانوا يمسحون امام شعب الله والذين كانوا يعيشون لا لنفوسهم بل من اجل الله ومن اجل المجتمع الذي كانوا يكرسون نفوسهم لخدمته ونحن نتنكر لوجودنا الخاص بنا لكي لا نكون الا لله هذا ما يعني التعري من الشكل الخاص ، اي ان نصبح مطابقين لله .

ان المسحة هذه هي رمز خاص وفي تمام الموافقة مع الاسم «مسيحي» لاننا قد مسحنا والمسيح نفسه هو الذي مسحنا وسكب مسحته الالهية على البشرية والمسحة هي التي تشركنا به ، ومسحة المعمودية ترمز الى هذه المسحة الالهية ، ومتمم السر يعبر عن ذلك علناً اثناء مسحه للموعوظ بترديده كلمات النبي داود التي تشير الى المسحة والملكوت الالهي . يقول الكاهن: « يمسح عبدالله بزيت البهجة » ويرتل داود للمسيح: «الاله الذي مسحك الهك بزيت الابتهاج ليفضلك على رفاقك» ، ويقصد بالرفاق نحن أنفسنا الذين جعلنا المخلص بصلاحه مشاركين له في ملكوته .

حتى الآن لم نقتبل الحياة . كل ما جرى لم يكن الا رمزاً ، توطئة وتقدمة للحياة . ولكن بعد التغطيس الثلاثي يظهر المستنير حديثاً على انغام الثالوث الكلي القداسة ويدخل تواً الى ملكية ما يطلبه . يولد ، يأتي الى النهار ، كما يقول داود ويأخذ الطابع المقدس ويحوز على كل التسهيلات المرغوبة ويصبح نوراً بعد ان كان ظلمة ، وكأن الله يقبله ويتبناه بعد ان كان عدماً ، ومن السحق السحيق والعبودية المظلمة ينتقل الى العرش السماوي .

ان مياه المعمودية تقضي على حياة لتعطي حياة أخرى . تخنق الانسان العتيق وتقيم الانسان الجديد . ويتضح هذا تماماً عند الذين خبروها . وبالاضافة فأن السر بحد ذاته يهب ذلك ، فالاختفاء في الماء

بواسطة التغطيس يعني القضاء على الحياة في الهواء، اي الموت، اماالعودة الى الهواء والنور فيعني العودة الى الحياة وحقيقة الحصول عليها. لذلك نستدعي هنا الخالق لانه هو مبدأ الحياة، والحادث حادث استيقاظ على الحياة وخليقة ثانية اسمى من الخليقة السابقة، والصورة تنقش في النفس بصورة أدق من الصورة الاولى، وينحت التمثال على شكل الله بصورة أكثر وضوحاً من الصورة السابقة فيظهر الرسم القديم أنقى وأبهى لذلك لا يستدعي متممو الاسرار اسم الله وحده كواحد من التثليث يشترك فيه التثليث بل يستدعون بكثير من الدقة والوضوح اسم كل أقنوم من التثليث، واذا جرى عكس ذلك فالأمر قد يستدعي خللا عقائدياً بسبب الغموض والابهام.

ومن الاسباب التي تستدعي ذكر كل أقنوم من الاقانيم بوضوح، كل بحد ذاته، ما يأتي: اذا كان الثالوث قد خلص الجنس البشري بتحننه فأن كل أقنوم من الاقانيم الثلاثة لعب دوراً خاصاً. فالآب قبل المصالحة والابن صالح والروح القدس هو الهدية لأصدقاء الله. الآب اعتق والابن كان البدل والروح القدس هو الحرية، «حيث يكون روح الله تكون الحرية» (٢ كور ٣ : ١٧) يقول صوت بولس. الآب يعيد جبلة الحياة، وبالابن أعيدت جبلتنا، اما الروح القدس فهو المحيي. وبما ان الثالوث كان في الخليقة الاولى ظلا فالواحد جبل، واليد كانت الجابلة، اما المعزي روح الحق فكان نفخه معطي الحياة. ولماذا أقول هذا؟ ان الله كان ظلا لولا هذه الخلقة الجديدة. ان الخيرات التي نشرها الله في العالم كثيرة ومع ذلك ليس من صلاح نسب للآب وحده، او للروح القدس وحده، او للابن وحده بل كل شيء كان مشتركاً بين الاقانيم الثلاثة. ان الثالوث خلق الكل بفضيلة واحدة وحكمة واحدة وعمل واحد، اما في التدبير الخلاصي فالأمر معكوس. لا شك ان الثالوث قد أقام الجنس البشري

وان الثالوث هو الذي أراد خلاصي والذي سبق ورأى وجودنا الا انه لم يعمل مشتركاً فالعمل هنا لا يعود الى الآب ولا الى الروح القدس بل الى الابن فقط . الابن الوحيد اتخذ وحده جسداً ودماً وعذّب وامتهن ومات وقام ،وهكذا استعادت البشرية الحياة وصارت المعمودية ولادة جديدة وخلقةجديدة ،ويجدر بأولئك الذينأصابوا مغنماً منهذهالخلقة الجديدة حيث ظهر الله في أقانيمه الثلاثة ان يستدعوا الله على هــذا الغسل الخلاصي باستدعاء الآب والابن والروح القدس .

لماذا لا نتمم ،أثناء المعمودية ،التدبير الخلاصي ؟ اننا نتمه انلميكن بالقول فبالفعل. فالتغطيس الثلاثي والتعويم يمثل– كما لا يخفى علىأحد – الموت الثلاثي الايام وقيامة المخلص وهما تتمة المخطط الالهي الخلاصي ، واننا لا نعلن بدون سبب عقيدة التثليث بصوت عال. نفعل ذلك لنعبر بالصمت والاعمال عن تدبير خلاصنا. فالعقيدة تصبح في متناول معرفة الانسان عن طريق المبشرين بالانجيل بينما أبصر البشر العمل الخلاصي بأم أعينهم ولمسوه بأصابعهم اذا جاز القول . لذلك نرى يوحنا العارف بازدواجية طبيعة مخلصنا يقول : « الذي كان منذ البدء وماسمعناه »،ثم يقول «ما رأيناه بأم أعيننا وما لمسناه بأيدينا من جهة كلمـة الحياة » (١ يوحنا ١ : ١) .ويكفي ان نؤمن بالعقيدةونشهد بالكلامبايماننابه: « فاذا شهدت بلسانك ان يسوع رب ، وآمنت بجنانك ان الله اقامـه من بين الاموات نلت الخلاص » (رومية ١٠ : ٩) .في حين انالتدبير الخلاصي يفرض اظهاره وتكراره عملياً . فقد قيل « فأن المسيح تـألم من اجلكم وجعل لكم من نفسه قدوة لتقتفوا آثاره »(١بطرس٢:٢١).

لهذا نعلن،من ناحية،اسم الثالوث بالصوت،ومن ناحية أخرىنعيد بواسطة الماء عملية الآلاموالصلبوموت المسيح. وهكذا نطبعفيانفسنا

الصورة والشكل الالهي . ويستنتج مما قيل ان المعمودية ، من جميع نواحيها ، القابها ومراسيمها والأناشيد التي ترافق اتمامها، هي النقطة الجوهرية في الحياة بالمسيح. يبقى علينا ان نعرف ما تقوم عليه هذه الولادة في الحياة .

الولادة بالمعمودية

اننا في المعمودية نطرح وجوداً ونعتاض عنه بوجود آخر . نتنكر لحالة لنربح اخرى. فأذا توصلنا لايضاح طبيعة هذا التبديل واتضح لنا الاساس الذي تقوم عليه الحياة بالمسيح فأننا نبلغ الهدف المقصود . ان نقطة الانطلاق فيما نرمي اليه هي الخطيئة والانسان العتيق، ونقطة الوصول هي البرّ والانسان الجديد . فلندرس هذا الموضوع بعمق .

الخطيئة خطيئتان ، خطيئة تقوم في الاعمال وخطيئة تقوم في حالة العادة. العمل الخاطيء ليس بدائم ولا بمستمر . انه يختفي فور اقترافه ولكنه يترك وراءه جرحاً كالسهم الذي يجتاز زقاً فيخترقه تاركاً وراءه ثقباً . العمل الخاطيء يترك جرحاً في فعلة الشر ليشهد على السقطة وعلى السبب الذي يدين الخاطيء اما عادة الخطيئة للافعال الشريرة فهي كالمرض الناتج عن حمية فاسدة . انها تقوم دائماً في النفوس وتقيد النفس بقيود لا يمكن فكها وتستعبد الادراك وتحول كل شيء الى شر وتقود فرائسها للاعمال الملتوية التي تولدها كل يوم وتصبح مع التمادي ذات وجود ومولدة وخالقة كحلقة مستمرة ، وهكذا لا يمكن ان تكون نهاية للخطيئة وتتقوى عادة الخطيئة بتكرار الاعمال وبها تأخذ وجوداً وعملاً خاطئاً وتكرار الاعمال الخاطئة يقوي عادة الخطيئة كما قلنا، وتصبح العادة خطيئة ملازمة، وهكذا يتطور القلق الخاطيء باستمرار

وتكون النتيجة كما يقول الرسول بولس : « لقد بقيت الخطيئة اما انا فقد مت » (رومية ٧ : ٩) ، مع العلم ان الشر ليس من اليوم ولا من الامس بل يعود الى ابينا الاول . ان آدم اذ استسلم للروح الشرير ردّ وجهه عن معلمه الصالح وفقد ميزة الحكم وخسرت روحه صحتها وكيانها الصالح ، ومشى الجسد كزوج للروح ولاقى المصير نفسه فتشوه معها كالآلة في يد فنان . النفس المتحدة وثيقاً بالجسد تنقل اليه اهواءها الخاصة . ما البرهان ؟ الخجل الذي تشعر به النفس يجعل وجهها احمر والجسد يرزح تحت ثقل الاهتمامات فيسقط ، وبقدر ما تتبع الطبيعة مجراها ، والجنس البشري نتاج هذا الجسد الاولي ، يكثر ويتضاعف . وينتقل الشر مع المواهب الطبيعية ، وكما ان الجسد لم يقع تحت تأثير اهواء النفس فحسب بل نقل اليها اهواءه فأنها ، اي النفس ، تشعر في الواقع بالفرح والتعب من ناحية ومن ناحية اخرى علينا ان نستنتج ان نفس كل انسان ترث من آدم الشر الذي ينتقل من النفس الى الجسد ومن ثم من الاجساد الى ذريته .

هذا هو الانسان العتيق الذي اخذ بذار الشر من الجدين الاولين واخذناه نحن بالولادة . لم نرَ يوماً واحداً خلواً من الخطيئة ولم نستنشق نسمة خالية من المرارة كما يقول النبي داود : « كنا اشراراً منذ ما حبل بنا وضالين ونحن في الاحشاء الوالدية » (مز ٣٧ : ٤) ، ولم نقف عند حدود المصير الشقي ، حدود الخطيئة الجدية ، لم نكتف بما ورثناه من محبة للشرور بل ازددنا شراً واضفنا على نفوسنا خبثاً حتى فاق شرنا الحاضر الشر الاول وغطاه وصرنا مثالاً شريراً وقدوة سيئة ، والاهم اننا لم نصبح فعلة للشرير بل صار الشر فينا يولد شروراً ويزداد باطراد لذلك لا يستطيع الجنس البشري ان يخلص نفسه بنفسه لانه لم يحاول ان يتمرد على الظلم وهو المطية للظلم ولا ان يذوق طعم الحرية التي يحلم بها .

ان المعمودية تحرر من هذه القيود الشريرة ومن هذا المرض والموت ، وبسهولة فائقه وبطريقة فورية مليئة وكاملة فلا يبقى لهـا أثر . انها لا تعتق من الخبث فحسب بل تعطي العادات المخالفة . فالله نفسه الذي مات من أجلنا أعطانا سلطاناً لقتل الخطيئة ، وبصعوده جعلنا ورثة الحياة الأبدية الجديدة . أما موته بحد ذاته فقد قتل الحياة الشريرة وحـلّ خطايانا ككفارة .

بهذه الطريقة يحررنا الغسل من العادة والافعال الخاطئة كلها ويظهرنا أنقياء ويجعلنا مشاركين في موت يسوع المحي. وبما اننا نشترك بالمعمودية في قيامة المسيح فالمسيح ينقل الينا حياة جديدة ويزودنا بامكانات وقوى تتناسب مع هذه الحياة ، لذلك تحررت من جرائري وامتلكت الصحة فوراً لان العمل هو عمل الله والله لا يحتاج الى الزمن ولا يفعل الخـير للمرة الاولى مع الجنس البشري لكي يحتاج الى الوقت . ان الله يفعل ذلك أزلياً . انه لا يكفر عن خطايانا في هذا اليوم فقط ولا يعطينا الدواء لاعضائنا ولا ينقل قوى وافعالاً اليوم واليوم فقط ، لقد فعل ذلك في الماضي لكن عندما ارتفع على الصليب ومات وقام اعطيت في هذا اليوم الحرية والشكل والجمال والاعضاء والعلامات الجديدة للانسان .

علينا ان نسرع الآن ونتقدم الى النعم الالهية . المعمـودية تعطينا هذه النعم . تعيد الاموات الى الحياة والاسرى الى الحرية والساقطين الى عالم فوق الطبيعة ، لقد دفع البدل وصار الوقت وقت انعتاق . لقد انتشر الاريج وملأت رائحته العطرة كل شيء ولم يعد علينـا الا ان نتنشقه . المخلص وهبنا قـوة التنشق والاستنارة والتحرر . لم ينشر المخلص الاريج ولم يهب النور بمجيئه فحسب بل خلق حاسة النظـر والشم . فالغسل الخلاصي يتعهد الآن المواهب والحـواس عند المستنير حديثاً . ننزل الى الماء كمادة مريضة لا شكل لنا لنأخذ شكلاً كالجمال .

وتبتدىء تفجرات الخيرات من هذه اللحظة . الوليمة حاضرة والثيران والحيوانات المسمنة قد ذبحت « كل شيء قد اعد فهلموا الى العرس » (متى ٢٢ : ٤) اينقص العيد غير الذين رفضوا قبول الدعوة ؟ واذا قبلوها فأي شيء يعكر سعادتهم؟ لا شيء .

المفروض ان نكون على تمام الاستعداد للمثول امام المسيح في الحياة المستقبلة وعلينا ان نكون مستعدين ايضاً لنتقدم من الوليمة . يكفي ان نتقدم لنحصل على كل شيء ،ولا مجال للعذارى الجاهلات في الوليمة. المشوهون مدعوون لوليمة الفرح .لا يمكن للميت ان يحيا ولا للاعمى ان يبصر ولا للابرص ان يشفى اذا لم يلب الدعوة الى الوليمة الملوكية . يكفي ان تكون لنا ارادة حسنة ويقظة روحية على الارض وكل ما تبقى يأتي « اتيت الى العالم لتكون لهم حياة » « انا اتيت نوراً للعالم » (يوحنا ١٠ : ١٠) (يو٣ : ١٩) وهذا كله من ينابيع رحمته .

لقد ترك الله لنا بالرغم من كل عطاياه الغزيرة من اجل خلاصنا شيئاً نسهم به في خلاصنا الشخصي . نعم ان المساهمة اذا قيست بغنى العطايا تعد ضئيلة جداً ولكن لهذه المساهمة وزن في ارادة الله. يكفي ان نعتقد بخلاصنا بواسطة المعمودية وان نوافق باختيارنا ان نتقدم اليها حتى تعطى لنا كل الأستحقاقات وهكذا يصبح الواهب مديناً بالخيرات التي فعلها من اجلنا . ان ايماننا بأننا اذا متنا بعد المعمودية فوراً فأننا لن نحمل غير طابع المعمودية لاكثر من حقيقة وسيخصنا الله بالاكليل كاننا قمنا بالجهاد من اجل الملكوت السماوي .

بما ان المعمودية تهب الحياة للمستنيرين فلنبحث طبيعة هذه الحياة . يمكن ان نجزم مسبقاً ان هذه الحياة ليست مماثلة للحياة الاولى ومطابقة لطبيعتنا بل اسمى لانه ماذا ينفع المـــوت اذا كان لا ينتهي الا بالحياة

الاولى ، او اذا كانت الحياة الجديدة لا تحملنا الى اعمال جديدة ؟ ان هذا لا يعني غير الموت . ان هذه الحياة ليست بحياة ملائكية لانه لا جامع يجمعنا بالملائكة . ان الانسان هو الذي سقط واذا اصبح الانسان ملاكاً لا يعني هذا انه قام . ان هذه الحالة تشبه تمثالاً محطماً لا يعيده الفنان الى شكله البرونزي الاول بل يعطيه شكلاً اخر وهذا يعني انك تخلق شيئاً آخر لا ان تعيد شكل التمثال من جديد . من الضروري ان تكون هذه الحياة بشرية وفي الوقت نفسه جديدة واسمى من الاولى وكل هذه الصفات تلتقي في الحياة التي جاء بها يسوع المسيح .

لا شيء يربط هذه الحياة الجديدة بالانسان العتيق . انها اسمى بكثير مما يتصوره العقل والادراك ، وخاصة بالطبيعة الالهية . انها مطابقة لطبيعتنا لانها كانت حياة انسان عاشها ، والانسان هذا كان انساناً حقيقياً كما كان في الوقت نفسه الهاً حقيقياً خلواً من كل خطيئة حتى في طبيعته البشرية . لاجل ذلك يجب ان تشرق فينا الحياة بالمسيح المعطاة لنا بالمعمودية المقدسة التي تجعلنا انقياء بمياهها المقدسة ، طاهرين من كل دنس الخطيئة . ويتضح ذلك مما يأتي : الولادة بالمعمودية بدء الحياة المستقبلة وتكييف الاعضاء الجديدة والحواس ، انها تهيئة للحياة المستقبلة ولا سبيل للتهيئة الى الحياة الاخرى الا بأقتبال سر المعمودية للحياة في المسيح « آب الدهر الآتي » (اشعيا ٩ : ٦) . انها تنقل الى البشر حياة الخلود التي قادها آدم الى الموت . وكما اننا لا نستطيع ان نحيا الحياة الطبيعية اذا كنا غير مزودين بالحواس الادمية وبالقوى الحيوانية كذلك لا يمكننا ان ندخل احياء الى العالم المغبوط بدون ان نكون قد تهيأنا بحياة المسيح وتطابقنا معه في الصورة والمثال .

لماذا يجب ان يقوم الموتى غير المعمدين ؟

المعمودية ولادة من نوع آخر . المسيح يلدنا ونحن الذين ولدنا . فمن يلد يعطي الحياة لمن ولده. واليك ما يثير العجب لا يقوم فقط المعمدون بل الذين لم يتمكنوا ان يستعدوا للحياة الخالدة بقوة الاسرار يقومون في الحياة الأخرى بأجسادهم غير الفانيـة . من العجيب ان يشترك في القيامة التي حملها موت المخلص الى العالم الذين لم يقبلوا سرّ المعمودية التي بها نشترك بموته المحيي. اذا كانوا قد هربوا من الطبيب ورفضوا مساعدته وامتنعوا عن الدواء الوحيد فما هو سبب خلودهم يا ترى ؟ أعتقـد ان هناك اعتبارين ، امّا ان يتمتع الجميع بالتساوي بالخيرات التي أعطاها المسيح للبشر بموته فنقوم ونحيا ونملك معه ونحوز على الغبطة — هذا اذا كان لا يطلب منّا شيئاً — وامّا لا يقوم الاّ الذين يؤمنون بالمخلص على أساس ان القيامة تفرض علينا مساهمة شخصية .

اليك الجواب . ان القيامة هي ترميم الطبيعة . انها موهبة مجانية من الله ، وكما انـه خلقنا بدون ارادتنا فيقيمنا بدون مساهمتنا . أما ذلك الملكوت ، أما رؤية الله وان نكون مع المسيح ، هذه المتعة للنفس للذين يحبونه ويشتاقونه ، فالله يحتفظ بها للذين أرادوه واشتاقوه. أما الذين لم يشتاقوه ولم يريدوه فكيف يمكنهم ان يروه او يتحدوا به ويتمتعوا بجماله كما يقول السيد: «لا يستطيع العالم ان يتلقاه لأنه لا يراه ولا يعرفه»

(يوحنا ١٤ : ١٧) . في الواقع لقد ذهبوا الى الحياة الأخرى عميان النظر والروح محرومين من معرفة المخلص ومحبته ومن ارادة وقدرة الاتحاد به ، فلا نعجبن اذاً اذا كان الكل خالدين واذا كان الكل لا يتمتعون بالغبطة . الجميع يتمتعون بطبيعة العناية الالهية ولكن المكافأة لا تمنح الا للمؤمنين خدام الله ، والسبب هو ان الله يريد خلاص الجميع ويتمنى الخير للكل ويعطي الكل بالسواء ما يقوي الارادة ويقوّم الطبيعة ولا مجال لرفض خيرات الله التي يمنحها لنا ونقبلها بالرغم عنا . ان الله يفعل الخير قسراً عنا مدفوعاً بكثرة رحمته ويضغط برحمته الحنونة علينا حتى لا نستطيع ولو أردنا ان نرفض خيراته . هذا ينطبق على ما تتميز به القيامة . ليس في استطاعتنا ان نولد والا نولد ، ان نقوم والا نقوم بعد الموت . أما ما يتعلق بما هو ضمن الارادة فمن المعروف ان اختيار الصالح ومغفرة الخطايا واستقامة العادات ونقاوة الروح والغبطة فهي مكافأة للارادة وبالارادة يتعلق تحقيق هذه الفضائل او بعض أقسامها. المكافأة على قدر العمل . اما اذا كنا لا نريد ، اذا كنا لا نقبل بارادتنا أية ايحاءات فهل نستطيع ان نطالب بالمكافأة .

أما الجواب الثاني ان المخلص بحد ذاته وبصيرورته بكر الخليقة بين الاموات اقتلع الطبيعة من الفساد، وبدخوله الى قدس الأقداس كسابق لنا حرر النفس من الخطيئة بعد ان قضى عليها وصالح الانسان مع الله وهدم الحائط الفاصل وقدس ذاته من أجلنا حتى نكون مقدسين فعلاً . فمن الواضح اذاً ان الذين يشتركون بطبيعته وارادته هم الذين يُخلّصون من الخطيئة والفساد كأناس اشتركوا بطبيعته وارادته وأطاعوا أوامره بارادتهم لما يريده . الجواب الاول ينطبق على غير المعمدين . الواقع ان الطبيعة البشرية واحدة عند المعمدين وغير المعمدين ، وهذا لا يقال عن رجاء الخلاص بالمخلص ولا عن وحدة القلب والروح معه . وبالنتيجة يحرم غير المعمدين من مغفرة الخطايا ومن اكليل البر لانهم بارادتهم

ابتعدوا عن المسيح، ولا تتعارض مع هذا قيامة هؤلاء بالجسد لأنهم يملكون طبيعة تشترك بطبيعة المسيح البشرية عدا حرمانهم من الحياة المغبوطة كما قيل . المعمودية بالفعل لا تهب غير الحياة السعيدة لا الحياة الحاضرة ، وموت المسيح وقيامته لم يهبانا غير الحياة الخالدة لذلك تمنح القيامة الموهبة المجانية لكل البشر اما مغفرة الخطايا، الاكليل السماوي والملكوت، فهي من حق الذين يساهمون من هنا ويتمثلون لمتطلبات هذه الحياة، لمتطلبات الختن السماوي ، من حق الذين يولدون من جديد ، من أجل آدم الجديد والذين يشعون النعمة ، بالشعاع الذي نشرته المعمودية فيهم ، لأنّ المسيح «هو أجمل مواليد البشر» (مز ٤٤ : ٣) ، أولئك الذين يرفعون جباههم عالية كظافرين في الألعاب الاولمبية لأن المسيح هو الاكليل ويصيحون بأسماعهم لأنه هو الكلمة ، ويحدقون بأبصارهم الى العلو لانه الشمس ، ويتنفسون لانه الاريج « أريج متضوع » (نشيد ١ : ٣) ، ويلبسون لباساً بدون دنس بسبب أعراس هذا الختن .

من هذا البحث ننساق الى بحث آخر لا نستطيع ان نمر به مروراً عابراً . اذا كان قبول المعمودية يتطلب منا بالفعل ان نريد وأن نؤمن بهذا السر لنحصل على النعم، واذا كان اهمال هذا الواجب المثلث واجب المعمودية وواجب الارادة للمعمودية وواجب الايمان بها يعني الحرمان من الغبطة فما هو وضع المؤمن الذي تنكر للمعمودية بعد قبوله لها ؟ تنكر لايمانه الاول ونكر المسيح ثم عاد بالتوبة الى الكنيسة .

من الطبيعي ان نقودهم الى مجاري المعمودية ، ان نجدد معموديتهم كأرواح مجردة من كل شيء اما الكنيسة فتطلب مسحهم تدبيراً بالزيت ولا تطلب أكثر من ذلك ثم تقبلهم في عداد المؤمنين . ماذا يمكننا ان نستنتج من ذلك ؟ أيستنتج غير الشرطين للدخول في علاقة مع الله ؟ ان الشر يحقق هذين الشرطين . الجاحدون يخسرون الشرط الواحد ،

معرفة استعمال البصر ، رؤية النور ،ويحتفظون بالشرط الآخر ،امكانية قابلية النظر والسبب هو ان استعمال العضو اختياري . يعود الينا أمر التفتيش عن الشمس واطباق عيوننا عن النور . اما ان نقلع هذه العين ونقضي على هذا العضو نهائياً ،فهذا ليس من صلاحيتنا اطلاقاً . اذا كنا لا نستطيع ان نحذف عضواً من الاعضاء التي منحتنا إياه الطبيعة فاننا لا نستطيع على الاقل ان نفعل ذلك بالعضو الذي أعطانا إياه الله بذاته عندما خلقنا .وبما ان الله خلق قوة التفكير فينا وكل الافكار الناتجة عن طبيعتنا الروحية ، لا فرق ان سُمّيت قوى روحية أو أي شيء تتأثر به النفس ويدفعها الى المعمودية لينقيها فتنقاد الى الله دون ضغط ، ولا شيء يضغط على الارادة البشرية حتى ولا الله ، والله لا يسحب مواهبه « فلا رجعة في هبات الله ودعوته » (رومية ١١ : ٢٩) . ويريد خيرنا ككلي الصلاح ، وصلاحه لا نهاية له ، ويهبنا خيراته بدون ان يسلب ارادتنا حرية الحق في العمل . هذا فعل المعمودية وخيراتها .

ان فضيلة المعمودية لا تضغط على الارادة ولا تستعبدها بل تكتفي بدورها كفضيلة ولا تمنع قط ان يبقى الذين هم تحت تأثيرها اشراراً . العين الصحيحة تبقى في حالة النظر حتى ولو كانت بين أطباق الظلمات كذلك الشاهد المؤمن الذي يترك نفسه بين أيدي الكفر والغواية بعد اقتباله لسرّ المعمودية والنعم الالهية . لذلك لا يعيد الكاهن معمودية الذين لا يحتاجون على أساس انهم لم يطرحوا كل القوى التي قبلوها بالخليقة الثانية . يلجأ الكاهن الى مسحة بسيطة لينقل اليهم نعمة الطاعة وخوف الله والمحبة التي تعيد اليهم امكاناتهم السابقة .يكفي ما ذكرناه حول هذا الموضوع .

حالة النفس المعمدة وحياتها

يتضح مما تقدم ان الذين يحيون حياة المسيح هم الذين تنقوا بالمعمودية واشتركوا بحياة المسيح . كيف يحدث ذلك ؟ انه لامر يفوق العقل البشري . انها قوة الحياة المستقبلة وتهيئة لها ، كما يقول الرسول بولس (عب ٦:٥) ، وكما اننا لانستطيع ان نفهم وظيفة العين الا بالنور ولا ان نفهم من هم في اليقظة الا اذا كنا يقظين كذلك من الصعب ان نعرف من هنا طبيعة وكمال القوى الجديدة المخصصة لمساعدتنا في الوصول الى الحياة المستقبلة لاننا نفتقد الى نقطة المقارنة والى النور الخاص .

لا شك اننا اعضاء المسيح وهنا يقوم فعل المعمودية ولكن جمال الاعضاء وتناسقها هما من فعل الرأس فلو فصلت الاعضاء عن الرأس لخسرت كل رونقها . ان رأس هذه الاعضاء لا يقع في الوقت الحاضر تحت ابصارنا وسنراه في الحياة المستقبلة عندئذ سترسل الاعضاء انواراً باتحادها مع المسيح. يقول الرسول بولس « لانكم قد متم وحياتكم محتجبة مع المسيح في الله . فاذا ظهر المسيح الذي هو حياتكم . تظهرون انتم ايضاً عندئذ معه في المجد » (كو ٣ : ٣ ـ ٤) ويقول القديس يوحنا « لم يحدد بعد من نحن ولكن عندما يظهر المسيح سنجد انفسنا مشابهين له » (يوحنا ٣١ : ٢) .

لهذه الاسباب لا يمكن في الوقت الحاضر ان نفهم طبيعة هذه الحياة. حتى ولا القديسون يستطيعون ذلـــك واكثرهم يعترف بعجزه وانهم يعرفون رمزياً كما في مرآة ولا يستطيعون ان يعبروا بالكلام حتى عن الشيء الذي يعرفونه . انهم يدركونه شعورياً ويعرفونه بقلوبهم النقية ولكنهم لا يستطيعون ان يجدوا التعبير الخاص لهذه الحالة من المعرفة الالهية . هـــذه الحالة تدخل في نطاق العجيبة التي شاهدها بولس في الفردوس عندما اختطف الى السماء الثالثة (٢ كورنثية ، ١٢ : ٤) وما يمكن ان يعرف ويقال عن هذه الحياة لتخليصه من الطبائـــع الجديدة للمعمدين والاعمال الفريدة التي قاموا بهـا ومن الفضائل الفائقة الطبيعة التي تقلبت على الشرائع البشرية والتي لايمكننـــا ان ننسبها لا الى العلم ولا الى المجهودات الشخصية ولا الى السلالة ولا الى اي شيء بشري آخر. ان روحهم جابهت بحماس شروراً تفوق الخيال. الجسد لم يطفىء رغبته ولكنه تحمل كل العذابات التي ارادتها النفس ومع ان قوة النفس والاحتمال الجسدي ليسا بدون حدود فلا الجسد ولا الروح يستطيعان ان يقاوما بعض الشرور . لكـــن هنـــاك شروراً في الجسد تتمكن النفس من التغلب عليها بما فيها من نعم . وفي هذه الحالة تحلق النفس وينحل عزم الجسد . اما ارواح اولئك المغبطين واجسادهم فلا يقف شيء في سبيلها. ضحوا بكل شيء ، تحملوا كل العذابات التي لا يمكن للخيال ان يتصورها ويخترعها ، تألموا حاملين آلامهم بصبر ، او بالاحرى انهم ما تحملوا وما تألموا بل احتقروا الحياة لا حباً بمكافأة عظيمة من اجل حياة اكـــثر سعادة . لم تدفعهم الشجاعة لتحمل كل هـــذا عن رضى . لم يدفعهم لا العقل ولا الادراك . انهم ليسوا كالمرضى الذين يقبلون الكي او يسلمون انفسهم لمبضع الجراح مضطرين ، انهم وهذا هو الجديد في هذه الحياة ، احبوا الجراح وكانوا يحترقون من الالم ويتوقون الى الموت بدون ايـــة نية مسبقة . كان البعض يطلبون العذابات والموت والبعض الاخـــر

يتحملون تقطيع الاوصال وكلما صادفوا عذاباً ازدادوا حماساً والبعض يطلبون الحياة محرومين من نعمة العيش . كانوا يحنون الى الموت حنين الجائع للقمة العيش . كان الجسد يحن الى ذلك وكان يقدم معونته مكافحاً ضد مقوماته الخاصة . لم تكن القضية قضية شخص او شخصين او عشرين من المسيحيين، لم يكن العمل عمل شخص واشخاص بلغوا من العمر مبلغاً، بل جموع من المؤمنين لا حد له ومن مختلف الاعمار . هؤلاء هم الشهداء الذين يشرفون بحثنا بصورة خاصة . انهم يعلنون ايمانهم بالمسيح بدون خوف امام مضطهديهم . لا فرق ان كانوا من صف المؤمنين قبل الاضطهادات او من الذين قبلوا هذه الحياة اثناءها . هؤلاء كانوا يعترفون بأسمه ويطلبون الموت بصوت واحد نساءً ورجالاً وشباباً وشابات من كل الصفوف والطبقات والاوضاع الاجتماعية ويحنون رقابهم للجلادمن اجل الحصول على شيء كانوا يبصرونه امام اعينهم .

لقد قلت « في كل الأوضاع الاجتماعية » وتستحق هذه الأوضاع الشرح وليست من الامور التي يجوز اهمالها . من يقف في وجه الصراعات ويتحمل العذابات لا يمكن ان يكون رجلاً عادياً يحيا حياة تافهة . ومن كانت حياته رخوة واعتادها لا يقارن بمن يحيا بعرق الجبين . لا يمكن لابن القصر ان ينظر الى الجلجلة كما ينظر اليها الجندي . كلاهما ينظر نظرة مختلفة اما الشهداء فلا شيء يقلص اندفاعهم . لا شيء يمنعهم من الوصول جميعاً الى قمة الحكمة لان الفضيلة الواحدة قد خلقتهم وكوّنتهم فوصلوا جميعاً الى أسمى درجات الفضيلة . لقد خبروا الحياة فأحبوا الخير الأسمى أكثر مما هو مطلوب من الطبيعة . لم يفكروا بوجودهم وكل ذلك من أجل المسيح . لقد تغير الكثير من الرجال المنحلين خلقياً، ممثلين وغيرهم ، بقبولهم لكلام خلاصنا فخلقوا من جديد والتزموا المنال الكامل عن رضى وعملوا على تغيير أقنعتهم .

حدث ان دخل الى هذه الجوقة من الشهداء عدد من الاتباع غير المعمدين . لم تتمكن الكنيسة من تغطيسهم في مياه المعمودية فأعطاهم ختن الكنيسة المعمودية بنفسه . نزلت غيمة من السماء على الكثيرين منهم او تفجرت الارض مياهاً ليتمكن هؤلاء من اقتبال المعمودية ، ولكن أكثرهم ولد بصورة غير منظورة لانه اذا كان بعض أعضاء الكنيسة كبولس او غيره يضرعون للمسيح فالأولى ان يكون رأس الكنيسة الذي يستجيب لتضرعات الاعضاء ان يكمل ما ينقص الاعضاء . لنعد الى الموضوع .

مِنْ سِقط القول ان نعتبر هذه الفضيلة التي أقدم الشهداء عليها بمثل هذه الشجاعة وركضوا بمثل هذه السرعة وانتهوا الى مثل هذه النهاية الحسنة التي حملوها على عاتقهم بحماس ، فضيلة نابعة من فوق . هذه الأفعال كلها من نتاج النعمة . كيف تستطيع المعمودية ان تنتج هذه الأفعال ؟

كيف تجعل المعمودية البشر أهلاً لأعمال بطولية ؟

من الواضح ان الذين قدموا مثل هذا المشهد الذي لا مثيل له هم الذين جُرّحوا بمحبة المسيح وتعذبت قلوبهم بالجهادات والتضحيات الحبية .

ما هو مبدأ هذه المحبة وسببها؟ تحت أي تأثير صاروا جديرين بمثل هذا الحب ؟ من نقل اليهم هذه الشعلة ؟ هذا ما سنحاول شرحه .

المعرفة تولد الحب وهذا يولد تلك . لا يمكن ان ننقاد الى محبة شيء قبل ان نعرفه ونعرف جماله . وبما ان هذه المعرفة تكون أحياناً كاملة وأحياناً ناقصة كذلك المحبة . وعندما نعرف معرفة تامة ما هو الجميل

والصالح فاننا نحب هذا الشيء على قدر ما يستحق من معرفتنا . معرفة ناقصة تعني محبة ناقصة .

ان المعمودية تحمل الى المستنيرين نوعاً من الادراك لذلك أدرك المستنيرون الله بوضوح ،رأوا جماله واشعاعاته وانذهلوا به وذاقوه. انهم عملياً اكتسبوا معرفة لا تحققها المعرفة العلمية .

هناك سبيلان للمعرفة ، المعرفة بواسطة المعلم والمعرفة عن طريق الاختبار الذاتي . ان تعليم الآخرين لا يدنينا من الفوضى مهما قدمت الأمثلة . بهذه الطريقة نتخيل الشيء ونتمثله ولكننا لا نلمسه بذاته ولا يمكن ان نجد بين الأشياء أمثلة كفيلة بجعل غرض ايماننا ملموساً مهما استعملنا من الأمثلة ومهما حاولنا ،اما المعرفة بالخبرة الشخصية فأنها تقود الى ما نريد فوراً وهكذا وفي مثل هذه الحالة ينطبع الغرض في النفس التواقة اليه ويوقظ انعكاسه الشوق المتبادل .

في الطريقة الأولى للمعرفة يتسلل شكل الشيء الينا ولا نحوز من جراء ذلك الا على فكرة مبهمة باهتة ،ورغبتنا في هذا الشيء تقاس بالنسبة لما نملكه من معرفة عنه ،ومحبتنا تكون على مستوى معرفتنا فاذا كانت ناقصة فمحبتنا ناقصة وكلما اكتملت المعرفة اكتملت المحبة مع العلم ان للاشياء تأثيرها على المعرفة وبالنتيجة على المحبة . فاذا كانت محبتنا ليسوع المسيح لا تثير فينا أية مبادهة جديدة وفائقة الطبيعة فأنها برهان على معرفتنا له بالواسطة. أمن الممكن ان نعرف من لا شبيه له بالواسطة وليس في الكون ما يشبهه او ما يمكنه ان يكون مثالاً له ،وهو الذي لا شبه له في كل الكائنات؟ كيف نعرف جماله لنحبه محبة تتفق مع جماله؟

أولئك الذين شعروا نحوه بمحبة تفوق كل خيال ،تفوق قوى الطبيعة ، وأخذوا على عاتقهم تحقيق أفعال تفوق حدّ التصور ،هؤلاء قد جرحهم

الختن الالهي شخصياً . أراهم بشخصه انعكاس جماله . ان عمق الجرح وطوله يشهدان عن مضاء السهم ، وحرارة الشوق تدل على موحيها .

ان سمو العهد الجديد على العهد العتيق يقوم على هذا الأساس . كان العهد العتيق مدرسة لتعليم البشر اما العهد الجديد فالمسيح هو الحاضر ، المسيح هو الذي يهيء النفوس ويشكلها بطريقة فائقة الوصف وذلك لان البشر كانوا عاجزين عن الوصول الى الهدف المنشود عن طريق التعليم والتثقيف . لو كانت المواعظ تكفي لما احتجنا الى اعمال فائقة الطبيعة ولا الى إله متجسد ، مصلوب ، ميت .

هذه الحقيقة تشع منذ بدء المسيحية عند آبائنا في الايمان وفي أشخاص الرسل . لم يبرهن الرسل عن شيء خارق بالرغم من امتلاكهم لتعليم المخلص ، بالرغم من سماعهم له بالذات ، بالرغم من رؤيتهم للحوادث بأم أعينهم ، بالرغم من كل الخيرات التي سكبها ، بالرغم من آلامه وموته وقيامته وصعوده . لم يبرهن الرسل عن شيء خارق فائق الطبيعة ، شيء يسمو على الاعمال التي كانوا يفعلونها الا بعد ان اعتمدوا ، عندما قبلوا المعمودية ، عندما انسكب الروح القدس في نفوسهم وصاروا رجالاً جديرين ، تحركهم حياة جديدة ، خلقوا داخلياً فاشعلوا شعلة المسيح في نفوسهم وفي الآخرين ومع انهم كانوا بالقرب من الشمس ، اشتركوا في حياته وكلامه فأنهم كانوا يفتقرون الى الاشعة لانهم لم يتعمدوا . وكمّل الله القديسين بالطريقة نفسها فعرفوه وأحبوه واضطرموا لا بالكلام البسيط بل بفضيلة المعمودية وتكونوا وأخذوا هيئة المحبوب « الذي يقتلع قلباً من الحجارة ليعوض بقلب من لحم » (مز ١١ : ١٩) ، والذي حفر « لا على ألواح حجرية بل على ألواح من لحم » (حز ١١ : ١٩) ولا يحفر شريعته عليها فقط بل الواضع للشريعة ذاته . وقد أكّد هذه الحقائق عدد كبير من القديسين الذين لم يتمكنوا من معرفة الحق

بالكلام ولا فهموه عن طريق العجائب ولا عن طريق قـوة من أعلن عنه ،بل صاروا قديسين كاملين بالمعمودية . فالمغبوط بورفيريوس الشاهد لكل البشارات والانتصارات والعجائب والمرسلين من أجل الانجيل ولعصر كان فيه ناموس المسيح مسيطراً وصوت الرسل مسموعاً في أرجاء المسكونة حيث رفعت رايات الشهداء الذين قدموا حياتهم من أجـل المسيح ،يتابع بأصرار طريق ضلاله ويضع الكذب فوق الحقيقة ولكنه عندما اعتمد ،ولم يعتمد عن ايمان بل هزءاً وسخرية ليضحك المتفرجين، تحول داخلياً . كانت مهنة بورفيريوس التهريج وقد تجاسر وهـو على المسرح ان يقلد العماد وعندما غطس في الماء واستدعى الثالوث القدوس آثار ضحك المتفرجين .اما ما حدث داخل بورفيريوس فلم يكن مشهداً من مشاهد المسرحية بل مشهد من مشاهد الايمان الخلاق . كان ولادة جديدة ، السر بذاته ، اكتسب المهرج روح شهيد ، جسداً لا يرتجف كأنه خصّص من قبل للفضيلة والجهاد . اكتسب لساناً لا يثير الضحك بل ثورة عاتية . انقلبت حياة المهرج وصار مطيعاً ومتفانياً من أجل المسيح . مات وسط عذابات كثيرة والفرح يغمره . لم يخن المحبـوب بكلمة واحدة تفلت من اللسان .

عرف القديس جلاسيوس المسيح فاحبه في الظروف نفسها . يظهر انه تقدم اليه خصمٌ فسمل عينيه وعندما رأى المضطهِد عظمة المضطـهَد وبهاءه اصيب بانجذاب نحو هذا الجمال الخارق فغير مشاعره وعـدوانه وافسح المجال للمحبة المسيحية . هذه المحبة تملك كل صفات العدوى لان الذين يُتخذون بالمسيح يُحملون فعلياً الى مـا وراء حـدود الطبيعة « كثيرون سيحملهم عجب رؤيتك » (اشعيا ٣٢ : ١٤) .

ان ارداليون الشجاع تعمد النيل من المعمودية فبدلاً من ان يقدم فصلاً هزلياً جعل مراسم العماد فصلاً أثار فيـه هزء المتفرجين . كان

أردالیون مهرّجاً وقد مثّل معمودية فعلية وتحمّل الآلام التي تحملها المخلص . واعتمد فعلياً ومثل شهادة الشهداء وقد علق بالفعل على خشبة بواسطة ممثلين .وبعد أن أنهى دوره الفعلي اعترف بايمانه بالمسيح وشعر بالجراح وتحول فوراً ،وصارت نفسه في وحدة مع كلامه وعواطفه في تناسق مع أعماله . لقد صار ما يجب ان يكونه ،صار مسيحياً،هذه هي نتائج الجراح الصناعية واللسان المستعار . لقد انتهى بمحبة المسيح لانه قال انه يحب المسيح . حلّ الحب محلّ النار ودخل من الفم الى القلب. الخير حسب المألوف يغمر القلب بغزارة ومن خير القلب يفيض اللسان . لقد حدث مع ارداليون العكس انسكب الشلال من لسانه ففاض قلبه بالحب .

يا لقوة المسيح التي لا توصف . لقد احتل المسيح ارداليون . احتله بدون ان يحسن اليه ،بدون ان يلوح بالاكليل ، بدون ان يجذبه بمغريات الآمال العذاب. استولى عليه والصقه به منذ اللحظة التي رآه فيها شبيهاً له في الجراحات والعذابات . لقد جعله يقبل بحقائق كانت تثير فيه الحقد والكراهية . اقتلعه من عاداته المزمنة واعاده الى مشاعره فصار افضل اتباعه بعد ان كان اكثر الناس انحرافاً وانحلالاً . (أهناك ما هو احقر من مهرج ؟أهناك ما هو احكم من شهيد ؟) واي علاقة بين الاثنين ؟

ما هو المنطق الطبيعي حتى تولد الجراحات والعذابات المحبة؟ كيف تحول الوثني الى رجل مسيحي عن طريق مسلك يبعد ولا يقرب الى المسيحية لوعورة مسلكها . أيمكن ان توحي المسيحية عذابات قاسية ، ايمكن ان ترد عدواً ومضطهداً يكره المسيحية كرهاً شديداً وتجعله صديقاً وتلميذاً ؟

من الواضح ان الكلام لم يكن له أي تأثير . كان كل ذلك من فعل

المعمودية .لا شك ان اردالیون كان قد سمع باعلان البشارة الخلاصية وكان شاهداً للعجائب لان عدداً كبيراً من الشهداء كانوا قد استشهدوا من اجل ايمانهم وكان اردالیون قد عرف ذلك . استمر اردالیون في غوايته وبقي عدواً للنور حتى اعتمد ،اي حتى قبوله لجراحات المسيح وجهره بالايمان الحقيقي . هذا هو من فعل المعمودية، والمعمودية هي التشبه بالمسيح والشهادة له امام بيلاطس والثبات فيوجه الصليب والموت . ومن هذه الناحية نستطيع ان نتشبه بالمسيح عن طريق هذه الصور والاسرار واعلان ايماننا به ساعة الخطر .

كثيرون هم الذين فتشوا خلال العصور عن الدواء للشرور البشرية ولكن موت المسيح وحده رد لنا الحياة والصحة ، لذلك اذا اردنا ان نولد هذه الولادة الجديدة وان نعيش من هذه الحياة المغبطة ونتهيأ لاستعادة الصحة فما علينا الا ان نتناول هذا الدواء المقدملنامن المسيح، وعلى قدر ما يستطيع الانسان ان يقدم شهادة عن ايمانه ويقبل الآلام ويذوق الموت . هذه فضيلة الشريعة الجديدة وهكذا يولد الانسان كاملاً ويصل الى الحكمة الخارقة. هكذا يولد المسيحي وينهمك بالاعمال الكاملة ويبقى ثابتاً في ايمانه مخلصاً له راضياً به ينظم عادته لا بقوة الاقناع ولا بلجام الناموس ولكن بقوة الله ناقلاً بايمانه وفضيلته صورته الالهية «لان الملكوت يكافيء الاعمال لا الكلام » (١ قور ٤ : ٢٠)« وعقيدة الصلب للمختارين قوة الهية » (١ قور ١ : ١٨) .

المعمودية وناموس المحبة

هذا الناموس روحي لان الروح يفعل كل شيء ويقوم بكل شيء ، اما ذاك فحرفي لانه يتمسك بالكلمات والاصوات وهو ظل الشريعة الجديدة ،وهذه حقيقة واقعية والكلمات والاحرف هي بالنسبة للاشياء صورة ورمز ،وقد أعلن الله بها الحوادث على ألسنة الانبياء في العصور السحيقة ،« سأعقد ميثاقاً جديداً لا يشبه الميثاق الذي عقدته مع آبائكم هوذا الميثاق ... » (ارميا ٣١ : ٣٣) .

لكي تكون لنا معرفة بهذه الشريعة يقول داود : « انا اعرف ان الرب عظيم » ،اعرف ذلك بالتجربة لا من الغير ويحضّنا على فعل ذلك: « ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » .ومع ان داود غنّى طيب الرب على أوتار كثيرة الا ان أناشيده تعتبر عاجزة عن اعطاء فكرة صحيحة عن طيبه ويفرض على مستمعيه ان يدركوا ذلك بأنفسهم . المعمودية تحتفظ بهذه المعرفة للنفوس التي تقبلها. انها توحي للخليقة الخلق وللذكاء الحقيقة وللقلب الكائن الوحيد المرعوب والرغبة التي توحيها حارة وملتهبة والحنان لا يوصف والمحبة تفوق الطبيعة . لا مجال لأي رغبة هنا . كل شيء مؤات ، لا شيء يضاد . كل شيء غزير فلنفسر ذلك .

ان الله وضع في أعماق النفوس رغبة الوصول الى الخير الذي تشتاقه

وامتلاك الحقيقة التي تفتش عنها خلواً من كل خطأ . من يخدع لا يكون سعيداً ولا يفرح ، من يضل او من يصادف الشر بدلاً من الخير وبالرغم من هذه الرغبة الملحة لا يملك الخير ولا الحق نقيين من كل مزيج وكثيراً مـــا يكون ما نسميه خيراً وحقاً معكوساً . اننا لا نستطيع ان نتصور ايضاً قوة المحبة وعزم الفرح وهوس الرغبة وتأجج اللهيب ما دام غرض ايماننا وفرحنا غائباً ، وغرض ايماننا لا يمكن ان يوجـد في الارض ، ان المرغوب موجود لأولئك الذين يذوقون الرب والقلب وجد كدرج فسيح ليحوي المرغوب هذا الكنز الثمين ، يحوي الله . فـــلا شيء يطفىء رغبتنا ولا شيء يشبعنا . اننا دائماً في حالة عطش دائم كأننا لا نصل الى غرض تجلياتنا . النفس البشرية عطشى « من يشرب من هذا الماء فلا بد له ان يظمأ . واما الذي يشرب من المـــاء الذي اعطيه اياه ، فلن يظمأ ابداً » (يوحنا ٤ : ١٣ – ١٤) هذا ما قاله السيد للسامرية . انها المياه التي تهدىء رغبات النفس « سأرتوي اذا رأيت مجدك » (مز ١٦ : ١٥) . خلقت العين للنور والأذن للسماع ، ولكل شيء غاية . ورغبة النفس الانطلاق نحو المسيح .

لا تجد النفس راحتها الا في المسيح لأنه الحقيقة والصلاح وكل مـا يحب ولا حقيقة ولا صلاح غيره ولا يحيز للنفس بقدر مـا فيها من المحبة التي أعطيت لها منذ الخليقة ان تتمتع وتفتش عن خيرات غـير الخيرات التي منحت لها بالمعمودية . ان خيرات هذا العالم لا تثـير في النفس لا المحبة الحقيقية ولا الفرح لانها خداعة ولا تتفق مـع طبيعتها وكثيراً ما تكون الخيرات التي نراها في العالم مقبرة للخير .

يحدث في عالم فوق الطبيعة المعكوس . لا شيء يتعارض مع الآخر . المحبة والفرح يظهران بصورتها الخلابة الرائعة والله قد خصها به لنحبه ونفرح به ويقاس عزم هاتين العاطفتين في لا نهاية هذا الخير . لنقـدر

عظمة هذه المحبة ولنعترف بسموّ درجتها . فـالله لا يطلب الا محبتنا ليعتقنا من كل ديننا . كيف لا نعتبر الله الديان أسمى ما في السمو وهو الذي بعدله يجعلنا معادلين للخير اللانهائي . بالفعل ان قمة المحبة تفرض قمة الفرح ،فالفرح هو من فعل المحبة . والفرح العظيم يتأتى من المحبة العظيمة فلا مجال للشك بأن الأرواح تخفي في ذاتها امـــكانية عظيمة وعجيبة من الفرح والمحبة وتبتدىء ناشطة ، منذ حضور السامي ، في المجال المحبوب جـــداً فيها . وهذا ما يدعـــوه يوحنا بالفرح الكامل (يوحنا ١٥ : ١١) .

وهكذا عندما يحل الروح القدس فينا ينشر أول مـــا ينشره من المواهب المحبة والفرح « ثمر الروح هو المحبة » (غلا ٥ : ٢٢) . ما هو السبب ؟ لأنّ الله عندما يحل فينا يشعرنا بوجوده ومن يشعر بحضـور الصلاح يحبه ويفرح به ضرورة .

معرفة الله تعطى بالمعمودية

عندما صار مخلصنا انساناً طلب اول ماطلبه ان يعرفوه . هذا ما اظهره وعلمه منذ البداية ومن اجل هذه الغاية تجسد مكرساً ذاته من اجلنا : « اتيت الى العالم لاشهد للحقيقة » (يوحنا ٨ :٣٧). فالحقيقة هي المسيح . تجنّب المخلص ان يقول ذلك تواضعاً «لكي لا اشهد عن نفسي». وهذا ما يستمر على فعله مع المعمدين . انه يشهد للحقيقة ويبعدهم عن الخيرات الخداعة ويقوم واهباً الخير الحقيقي بكشفه لهم نفسه حسب تعبيره (يوحنا ١٨ : ٣٧ و ١٤ : ٢٢) .

الأفعال كما قلت تظهر ان هذه التأكيدات أساسية وان المعمدين يتميزون بنوع من الادراك الالهي . واذا كانت هذه الحقيقة تحتاج الى براهين قاطعة من قبل الكثيرين من الرجال القديسين فما علينا الا ان نقرأ صاحب النفس الشفافة المشعة ونسمع الصوت الرنان كالذهب، صوت يوحنا الذهبي الفم :، «ان مجد الله ينعكس كما في مرآة ليحولنا الى صورته. ماذا يعني ذلك؟ كان من السهل ان نفهم ذلك لو كانت العجائب فينا أكثر حيوية في فعلها الكامل . هذه الحركة تظهر في الوقت الحاضر عند المستنيرين بالايمان . عندما نعتمد تصبح نفسنا المطهرة بالمعمودية أكثر اشعاعاً من الشمس لا من حيث طبيعتها الخاصة فحسب بل بسبب بريق الشمس لأنها تقبل من الروح شعاع المجد حتى تنتهي

بامتلاك اشعاع خاص بها ،ولا تصير كذلك الا بروح السيد الذي ينقل لها ذلك » . ويقول في مكان آخر : « أتريدون ان تصبح هذه الحقيقة محسوسة ؟ تذكروا القديس بولس والقديس بطرس اللذين كان لهما تأثير عظيم ،الواحد بثيابه والثاني بظله . لم يكن للثياب زهوة ولا للظل لو لم يكن الرسولان من حملة صورة الملك ولو لم يكن اشعاعها انعكاساً لمجد لا يدرك . فالعباءة الملوكية توحي بالخوف لفاعلي الشر . أتريدون ان تروا هذا الاشعاع من خلال الجسد ؟ ان وجـــه استفانوس ظهر للأعين الشاخصة اليه كأنه وجه ملاك (أعمال ٦ : ١) ، لا شيء يوازي البهاء الداخلي . ما حمله موسى فوق جبينه حمله القديسون في أعماق قلوبهم بصورة اكثر بهاءً. كان اشعاع موسى حسياً واشعاع الرسل فوق الحس. الذرات المشعة من اجساد مشعة تنعكس على الاشياء المحيطة بها وتنقل اليها اشعاعها ،وهذا ما يقال عن المؤمنين ،ان النفوس المختارة تنفصل عن الارض ولا تحلم الا بالسماء . ولكن ويا للأسف ! هناك ما يـــدعو الى البكاء والنحيب عندما نفكر اننا نحن ،ورثة هذا الشرف العظيم ،لا نفهم حق ما قيل لنا . ننسى سريعاً ونترك أنفسنا في يـد الاشياء الارضية الخداعة . المجد الفائق الوصف يسكن فينا ليوم أو يومـــين ثم نطفئه باحتضاننا لزوبعة احلامنا العادية وأعمالنا اليومية وبحجبنا الاشعة بغيمة كثيفة . وهكذا لا يستقي المؤمنون من أجران المعمـــودية كما نتصور معرفة بسيطة عن الله تقوم على أخذ فكرة أو معلومات سطحية عنه او تفرض ايماناً بسيطاً بل معرفة أكثر عمقاً وكمالاً وموضوعية ونخطىء اذا اعتقدنا ان هذا البرق الخاطف يدخل الى النفوس شعاعاً مقيماً من أشعة الذكاء ينطفىء خلال يوم أو يومين وسط الضجيج والضوضاء . ان الايمان ، لا أحد يجهل ذلك ، ينشىء لاهوتاً مهما كان الاهتمام به قليلاً ويعرف ما هو الخلاص والحكمة الحقيقية حتى ولو كان الانسان غارقاً في ظلمة الشهوات . ويستنتج من هذا كله ان الادراك الالهي يتأتى عـن

الاتصال المباشر بالله في الوقت الذي يأتي فيه الشعاع الالهي لملامسة النفس بصورة غير منظورة .

كل الطقوس التي ترافق الغسل في المعمودية ترمز بدقة الى هذا الاشراق ، فالاحتفال هذا هو احتفال الانوار والشموع والاناشيد وحركات الكورس والمظاهر الظفرية . كل شيء مفرح . حتى أثواب المعمودية الناصعة البياض معدة للذين سيرون النور .

ان البرقع الذي يغطي الرأس يرمز الى الروح القدس وشكله يعلن حضور المعزي لانه على شكل لسان يغطي الرأس ،وعلينا ان نحافظ على قدر الامكان على هذا الشكل الذي ظهر به الروح القدس عندما عمّد الرسل في البدء . يستقر فوراً فوق هذا القسم من الجسد ويمكن رؤيته فوق رأس كل انسان شعلة على شكل لسان ، وذلك حسب اعتقادي لادراك السبب من نزول الروح القدس ،وهو بشارة الذين يجهلون الكلمة المساوي له في الجوهر . هذا هو دور اللسان المترجم لحركات النفس الصميمية المعبرة عن مكنون الداخل . وهكذا يُظهر الكلمة الآب والروح القدس الابن ويقول يسوع عن أبيه « لقد مجدتك » (يوحنا ١٧ : ٤) ، ولهذا ظهر الروح القدس للرسل تحت هذا الشكل .

ان البرقع الرمزي يعيدنا الى هذه العجيبة ، الى هذه الذكرى ، الى هذا اليوم المقدس الذي صار شاهداً للمعمودية الاولى . يذكرنا بأن أولئك الذين قبلوا الروح القدس أولاً نقلوه الى خلفائهم وهؤلاء الى من جاء بعدهم وهكذا الى أيامنا . لا تلغى هذه الموهبة الا عند ظهور الواهب بالذات فالسيد أذ"اك يبعد كل برقع ويمنح الصديقين رؤيته بالذات . أمّا الآن فلا نستطيع ان نصل اليه الا على قدر ما يسمح به برقع الجسد السميك .

ان الفرح الذي لا يعبر عنه والمحبة العزومة هما من نتاج الرؤيـــة للالوهة ويجب ان تعزى الكشوفات العظيمة لهذا الفرح ولهذه المحبة، وكذلك الاعمال الخارقـــة والسير الظافر المنتصر وسط الحـــواجز والمصاعب . فلا التجارب ولا المسرات تستطيع ان تجذب أو ان تجر اليها الذين هم تحت سلطان وسيطرة محبة كهذه المحبة .

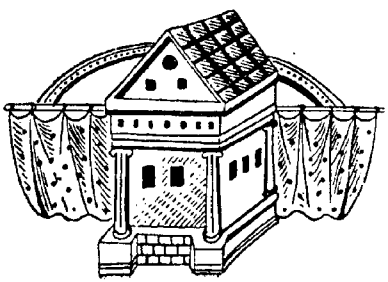

موجز ونتيجة

تتلخص نتائج المعمودية كما يأتي : محو الخطيئة ، مصالحة الانسان مع الله ، سكن الله في الانسان ، فتح اعين النفس بالاشعة الالهية ، تهيئة كل شيء لعالم الاستقبال . فاذا سمينا المعمودية ولادة او اذا نعتناها بنعت آخر مماثل لا نتعدى الواقع مع العلم انها توقظ في النفس البشرية المستنيرة حديثا معرفة الله . اضف الى ذلك كونها حقيقة وقاعدة حياة لانها كما يقول مخلصنا « الحياة الحقيقية تقوم على معرفة الله الوحيد يسوع المسيح الذي ارسله » (يوحنا ١٧ ، ٣) ، او كما يقول سليمان الحكيم « معرفتك هي اساس الخلود » (حكمة ١٥ ، ٣) واذا اردنا ان نعالج الامر عقلياً فمن يجهل ان وجود الانسان الحقيقي وسموه يقوم في حياته العقلية ومعرفته ؟ واذا كان الامر كذلك فهذه الحياة تقوم على المعرفة الكاملة الخالية من كل ضلال . اهناك معرفة اكثر كمالاً من المعرفة التي تستهدف الله الذي يفتح اعين النفس ويوجهها نحوه بعيداً عن كل ضلال ، هذا ما تفعله المعمودية .

مما تقدم تبين ان المعموديـــة تعطي مبدأ الحياة بيسوع المسيح الى البشر كما تعطيهم الوجود والحياة الحقيقيين . فأذا كانت هذه الافعال لا يظهر عملها في كل المستنيرين حديثاً لا يعني ان السر مسؤول عن ذلك بل

الافراد الذين لم يستعدوا جيداً لقبول النعمة او لانهم بـدّدوا الكنز المعطى لهم بالمعمودية .

الا يكون اجدى واعدل لو اتهمنا اولئك الذين لا يحملون امكانية قبول السر بدلاً من ان نقول بعدم فاعلية السر الواحد المعطى للجميع ! من الواضح ان هذه الغزارة من المواهب تعود الى المعمودية لا الى طبيعتنا ولا الى الجهد الشخصي والاّ كيف يقبل ان يكون الشيء الواحد مضيئاً ومظلماً في وقت واحد ؟ كيف يمكن ان يجعل الانسان سماويـاً والا يجعله ؟ يرفع الى ما فوق ولا يرفع ؟ انستطيع ان نتهم الشمس بالظلمة وان ننكر نورها اذا كان بعض البشر لا ينظرون اشعتها ؟ اننا نخاطب الذين ينظرون واذا تكلمنا خلافاً لذلك فأننا نتهم بعدم المنطق ، اذا قلنا ان من الاستنارة يصدر غير النور وغير ما تعنيه هذه الكلمة .

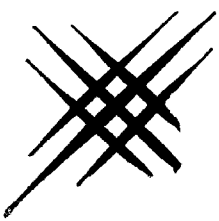

المسحة ووضع الايدي

هذا الترميم الروحي وهـــذا التجديد بالمعمودية يستدعيان افعالاً ونشاطات تتناسب معهما . المسحة هي التي تعطي هذه الافعال وتجعل القوى الروحية ،كل القوى ،في حركةٍ وفقاً لقابلية الفاعل وتعطي للمعمدين النتيجة التي كانت تعطى بواسطة وضع الايدي على المستنيرين حديثاً من قبل الرسل ، « بوضع ايدي الرسل كان الروح القدس ينزل على المعمدين حديثاً » (اعمال ٨ : ٣٨ – ٣٩) وهكذا ينزل المعزي في ايامنا على المثبتين واليك البرهان .

كان الملوك والكهنة تحت ظل الشريعة القديمة يمسحون . اذا كانت الكنيسة تستعمل المسحة لتنصيب الملوك وتعمد الى وضع الايدي لسيامة الكهنة مستدعية الروح القدس فهذا يعني ان الكنيسة تنظر الى المسحة ووضع الايدي نظرة واحدة . اضف الى ان الطقسين المقدسين يسميان ويلقبان بالالقاب والاسماء نفسها . فالسيامة تسمى مسحة كما ان الختم يقال له موهبة الروح القدس . وفي الواقع ان الكهنة القديسين يسمون السيامة مسحة كهنوتية ،وعلى اساس اعتقادهم هذا يطلبون في ابتهالاتهم الى الله ان يأخذ المختومون الروح القـدس . والسران يعطيان الى الذين يقبلونهما كختم للموهبة الالهية . وهذا مـــا يرتله المرتلون اثناء المسحة . ان المسيح يسمي ذاته ممسوحاً لا لان المسحة قـد انسكبت

فوق رأسه بل بسبب الروح القدس الذي به صار كنزاً لفعل روحي في الجسد الذي اتخذه . لا يقال المسيح الممسوح فقط بل مسحة ايضاً، « ان اسمك زيت ينسكب » (نشيد ١ : ٣) . انه ممسوح منذ الازل وصار فيما بعد مسحة لان كل ملء اللاهوت كما يقول القديس بولس يحـــلّ فيه جسدياً (كو ٢ : ٩) . ولم يعطه الروح القدس بشح بـــل أغناه بكل الكنوز الروحية فانسكبت المسحة وانتشرت في كل جسده فصار يقال للمسيح مسحة حقيقية ، وان تعطى ان تصير مسحة تنسكب تكون للمسيح . ومن أجل ان يقوم بمثل هذا العمل لم يكن مضطراً ان يغـير مكاناً او ان يهدم حاجزاً بعد ان حقق ما يفصلنا عنه ولم يترك فاصلاً بيننا وبينه . ان الله لم يكن بعيداً عنا بالمسافة ما دام الله يحتل كل مكان بل كان بعيداً عنا بالشبه . ان طبيعتنا باختلافها معه في كل شيء ابتعدت عنه . لم يكن بينها وبينه أي شيء مشترك . كان إلهاً وما كانت طبيعتنا الا بشرية . وعندما تأله الجسد واتحدت الطبيعة البشرية أقنومياً بالله الذي كاله يحدد المسافات صار مسحة ولم يعد لعدم الشبه من وجـــود والشخص ذاته الذي كان إلهاً من ناحية ومتجسداً من ناحية أخرى، هذا الشخص محا المسافات بين الالوهة والبشرة وصار همزة وصل بين طبيعتين لا يربط جوهرهما البعيد الواحد عن الآخر أي رباط . فكما ان الاريج الذي يملأ الوعاء يصبح والوعاء شيئاً واحداً لا يمكن ان يعزل عن محيطه الخارجي لانه غير محصور ما دام قد احتل الوعاء وصار الوعـــاء قسماً منه ليشترك بالأريج كذلك طبيعتنا التي تألهت بجسد المخلص . لا شيء يفصل الله عن الجنس البشري، لا شيء يتعارض مع اشتراكنا في النعم ما عدا الخطيئة . الله هدم الحائط المزدوج أي طبيعتنا بتجسده وارادتنا الملتوية بالشر بقبوله للصليب الذي حرر من الخطيئة . لهذا السبب نعمد الى الختم بعد المعمودية الحاوية والمالكة لفاعلية صلب المخلص وموته . فهو موهبة الروح القدس ولم يبق بعد تنحية الحاجزين وابعادهما مـــا يعيق انتشار الروح القدس .

نتائج الختم

ان سرّ المسحة المقدسة يوزع على المعمدين مواهب الاشفية والبنوة والكلام، امّا الاسرار الاخرى فتظهر قـــدرة المسيح الفائقة الطبيعة للجميع. كانت هذه العلامات الخارقة ضرورية في عصر تأسيس الكنيسة وتوطيد المسيحية ومنذئذ صار بعض المسيحيين في الماضي القريب وفي وقتنا الحاضر من المحظيين فقالوا في المستقبل وطردوا الشياطين وشفوا المرضى بابتهالاتهم، لا وهم على قيد الحياة بل وفي قبورهم. فالقوى الخارقة لا تترك اجساد المغبطين حتى بعد الموت .

ان سرّ المسحة يعطي المسيحيين على مدى الزمان المواهب النافعة جداً للنفوس والتقوى والابتهالات والمحبة والنقاوة وخيرات كثيرة قد تغيب عن أذهان المؤمنين اما لأنهم يجهلون فاعلية السر، او كما تقول الاعمال « يشكون اذا كان الروح القدس موجوداً » (أعمال ١٩ : ٢) واما لانهم لم يُعطوا وزناً لقبول المواهب لان السر أعطي قبـل سر النضج وانهم عندما صاروا في سن الادراك ضلوا وأعموا عيونهـم الروحية . وصحيح القول بأن الروح القدس يعطي مواهبه للمختومين «موزعاً على كل انسان حسب مشيئته » (قور ١٢ : ٢) . ان معلمنا لا يتعب من اجبارنا وهو الذي وعدنا بأن يكون معنا الى منتهى الدهر . ومع هذا

كله فالطقس لا يذهب سدى فكما انـــه بالتنقية ننال مغفرة الخطايا ونأخذ من على المائدة المقدسة جسد المسيح وان هذه الافعال ستبقى الى المجيء الثاني لمعطيها ، كذلك لا مجال للشك بأن المسيحيين يستخلصون من ختم الروح القدس الامتيازات الملازمة له ، مواهب الروح القدس . أيمكن ان تكون لبعض الاسرار أفعال وللأخرى لا ؟ أيمكن ان يكون الله باراً بوعده في كل الاسرار ما عدا المسحة المقدسة ؟ لا يجوز ان نقلل من قيمة أي سر فاذا قللنا من قيمة سر واحد نقلل من قيمة كل الاسرار لان القوة الفاعلة في كل الاسرار واحدة . فالذبيحة ذبيحة الجلجلة ذاته ، والميت هو الله والدم هو نفس الدم الذي يهب الفاعلية للجميع .

ان الروح القدس كما يقول الرسول بولس يعطي للبعض مواهب من أجل منفعة القريب فالبعض يتنبأون بالمستقبل والبعض يبشرون بالاسرار والبعض يشفون المرضى ... ومن أجل بنيان الكنيسة والبعض الآخر يعطيهم المواهب لتشرق فيهم التقوى وتكمل نقاوتهم ومحبتهم وتواضعهم (١ قور : ١٤ : ٥) .

من الممكن ان يكون الانسان عـــاقلاً وان يكون من أصحاب العادات التي لا غبار عليها فيعمل الخير ويعظ ، وان يكون فاضلاً يقوده العقل وصقلته التجارب ، كما يمكن ان يكون رجلاً من أصحاب الارادات القوية التي تتمكن ان تتغلب على الاهواء ، وان يكون محباً ومطبقاً لكل عدالة وان يمتثل في كل شيء للحق والعدالة ولكن مواهب الروح القدس هي التي تنقل له كمال المواهب فكما ان بعض الغرائز الحيوانية تنتقل الى الممسوسين والملوكين بالأرواح الشريرة كذلك الفضائل الفائقة الطبيعة تُنقـــل الى النفس بواسطة الروح القدس . هكذا أحب الرسول بولس الذي كتب الى أهل فيليبي يقول انه يحبهم في أحشاء المسيح وكذلك قيل عن داود « وجدت رجلا حسب قلبي » يقوم بأعمـــال الوداعة .

وكذلك فعل قديسون آخرون وبرهنوا عن كمال يفوق قواهم. ان الايمان هو موهبة الروح القدس الذي طلبه الرسل من المخلص « زد ايماننا » (يوحنا ١٧ : ١٧) ويستجيب الله لمن يرجوه. ويتوسل الروح بتنهدات فائقة الوصف (رومية ٨ : ٢٦) واهباً فضيلة الغنى لتضرعاتنا .

هذا باختصار: ان الروح القدس هو روح حكمة ، روح فهم ، روح مشورة ، روح قوة ، روح تقوى . انه مواهب عديدة توهب لمن يقبله.

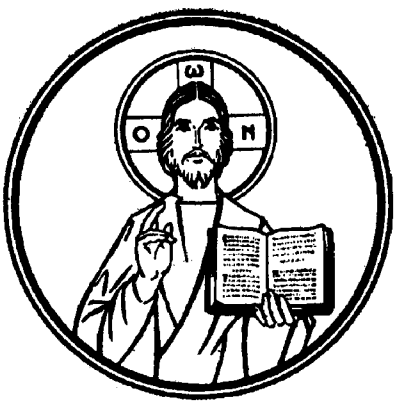

السر يفعل فعله

ان ختم موهبة الروح القدس يفعل فعله عند كل الممسوحين ولكن الشعور بهذه المواهب لا يكون واحداً عند الجميع ولا يعملون على توزيع هذا الكنز بالسرعة التي يستحقها وذلك لانهم لم يصلوا الى سن الادراك، او لانهم يفتقرون الى الاستعداد والقابلية وقت قبول المعمودية، ومع ذلك برهن البعض بدموع ندامتهم وحياتهم على انهم قبلوا النعم الممنوحة لهم بالسر. وقد كتب الرسول بولس الى تلميذه تيموثاوس يقول: «احذر من ان تهمل النعمة التي فيك» (تيمو ٤ : ١٤)، لان النعمة المهملة لا تفيد شيئاً وان الكد والسهر مفروضان على الذين يريدون لأرواحهم مغنماً روحياً من هذا السر.

اذا رأينا انساناً فاضلا يمتاز بالمحبة ويتميز بالنقاوة الخلقية وبعظم تواضعه وكثرة تقواه أو بأي فضيلة أخرى مطبقة تطبيقاً يثير الاعجاب فالسبب هي المسحة المقدسة التي أعطيت له وقت اتمام السر عن استحقاق والتي شعر بمفعولها فيما بعد. وينطبق هذا القول على الذين يكشفون المستقبل والذين يشفون المرضى والمعتوهين وأمراضاً أخرى بدون الالتجاء الى المهن وعلى الذين يقومون بأشياء عجائبية أخرى. ما قيمة المسحة اذا كانت لا تفعل فعلها وقت اتمام السر؟ ما قيمتها اذا كنا لا نستطيع

ان ننسب لها أفعالاً خارقة يقوم بها المؤمنون فيما بعد ؟ ما هو فعلها اذا كانت لا تحقق ما نرجوه من اقتبالها ؟

فلا نقولن انه على حساب هذه الاعمال الخارقة ننال أموراً أخرى لأننا اذا لم ننل ما هو معلن وما ترمي اليه الاشياء ومايطلبه مكمل السر وما يؤكده وما يجب ان يناله المسوح فمن العبث انتطلب شيئاً آخر، « ليست بشارتنا عبثاً ولا ايماننا ». يجب ان نستنتج ان كل عملية تفوق الطبيعة ، كل ما يدخل في نطاق مواهب الروح القدس يجب ان يعطى للصلوات والمسحة .

لم يعط شيء للمصالحين مع الله الا" وكان العاطي من كان وسيطاً بين الله والبشر، ولا يمكن ان نصل الى الوسيط بدون الاسرار للاتصال به لننال المواهب . فالاسرار هي التي تخلق هذا التجاذب بين دمه ودمنا وتجعلنا مشاركين له بآلامه ونعمه وتجسده الالهي. علاوة على ذلك يجب ان نعرف ان الشرطين الأساسيين اللذين يحققان مصالحتنا مع الله وسلامنا الأبدي هما اشتراكنا في الاسرار المقدسة وعمل الفضيلة . ثانياً الجهود الشخصية التي ترمي الى الحفاظ على الخيرات الممنوحة وعدم تبديد كنوزهما . ان فضيلة الاسرار وحدها تحقق لنا هذه الخيرات وهذه الكنوز. كل سر له مفعوله الخاص وكذلك اعطاء الروح القدس ومواهبه. فاعطاء الروح القدس يتم بواسطة المسحة المقدسة لذلك لا يجوز ان ننظر بعين الشك والريبة الى مبدأ الاسرار حتى ولو كانت مفاعيل مواهبها لا تظهر أثناء القيام بالطقس، وكذلك الاستنارة الناتجة عن المعمودية. عند بعض الاشخاص الحاري الايمان لا تظهر الا بعد زمن وذلك عندما تتنقّى أبصارهم بالتعب والعرق ومحبة المسيح لهم .

نتائج المسحة المقدسة

ان بيوت العبادة تصبح بالتكريس أمكنة مؤهلة للصلاة، وفي الواقع بعد مسحها بالزيت المقدس تصير كما يدل عليها اسمها. فالمسحة المنسكبة هي وسيطنا عند الله الآتي لانه هو المنسكب بذاته وهو الذي صار مسحة وانسكب حتى الى طبيعتنا.

تقدم الهياكل المهمة نفسها التي تقوم بها يد المخلّص ونقبل من المائدة المكرمة بالمسحة الخبز كأننا نقبل من يده الكلية الطهارة جسده المقدس ونشرب كل دمه كما شربها الرسل عندما ناولهم مخلصنا لما رفع الكأس على شرف هذا الشراب غير المغلوب. وبما انه في الوقت نفسه صار كاهناً ومائدة وضحية وفصحاً وخادماً وتقدمة فالمسيح قسم ادواره بين خبز التقديس والمسحة. فالمخلص مائدة وضحية بسبب المسحة. المائدة تصبح كما هي بالمسحة ويصير الكهنة كما هم كممسوحين. المخلص ضحيّة بسبب عذاب الصليب والموت الذي لقيه من أجل مجد الله أبيه «انا في كل يوم نأكل جسده ونشرب دمه نعلن قيامته» (قور ١١ : ٢٦).

المسيح مسحة وختم أيضاً بسبب الروح القدس وعليه ان يتم المهمات الكثيرة القدس وان يقدس. لم يكن هو موضوع التقديس. الدور يعود للمذبح، الى المضحي، الى المقدم لا الى التقدمة، لا الى الضحية وقد

قيل ان المذبح يقدس «المذبح يقدس التقدمة» (متى ٢٣ : ١٩) . وكخبز قدم وكمسحة يقدم بعد ان ألّه جسده ويقدمنا نحن بعـــد ان جعلنا شركاء في مسحته . فيعقوب مسح الحجر رمزياً ثم قـدمه للرب وعنى بالمسحة هذه جسد الرب المخلص، حجر الزاوية الذي بنى عليه اسرائيل الحقيقي، الذي وحده عرف الرب، سكب مسحة الالوهة او نحن ليقيم المسيح منا نسلا لابرهيم بواسطة الختم المقدس لان المسحة المقدسة بانسكابها على المختومين تصبح بين ما تصبحه روح بنوة. هذا الروح يشهد لروحنا بأننا أولاد الله ... (رومية ٨ : ١٥) . وهكذا يسهم الختم في بناء الحياة في المسيح .

السر العظيم

نتقدم من المائدة السرية لنصير شركاء في جسد السيد الطاهر ودمه الكريم . يستقي المسيحي من المناولة الالهيـــة الحياة الروحية بقوتها العظيمة . لا يستطيع الانسان أن يتصـــور سعادة أسمى من سعادة الاشتراك في هذا السرّ العظيم . فالمقصود هنا ليست الحياة الفضلى فقط بل ما هو أسمى. بالمناولة المقدسة لا نأخذ بعض الهدايا من الروح القدس بل السيد الناهض ، المحسن الكبير ، الهيكل الحـــاوي لكل النعم والمواهب الالهية . لا شك ان المسيح موجود في كل أسرار كنيستنا . أنه حاضر في الذين يشتركون فيها ويعطي النعم بطرق مختلفة ولكنه عندما يقود المؤمن الى سر الشكر الالهي ويعطي جسده طعاماً روحياً ودمه فأنه يحول الانسان . يبقى الانسان حتى المناولة طيناً ولكنه بعد المناولة لا يبقى كما كان طيناً . يأخذ شكلاً ملوكياً، يصبح جسد المسيح الملك . أية سعادة أعظم من ذلك ؟

ان المسيح ،وفقاً للوعد الذي قطعه ،يسكن فينا ونحن فيه بالمناولة المقدسة :«من أكل جسدي وشرب دمي يبقى فيّ وأنا فيه »(يوحنا ٦: ٥٦) . وعندما يسكن المسيح فينا على الدوام، عندما يسكن في قلوبنا فماذا نحتاج بعد ؟ أيمكن ان نحرم من أية خـيرات حقيقية ؟ ان المسيح

مسكن لنا وساكن . أننا سعداء لأنّ لنا بيتاً كهذا . اننا سعداء أيضاً لأن المسيح جعل بيته فينا . أية خيرات ليست في متناول يدنا ؟ أية خيرات روحية تنقصنا اذا كنا مرتبطين بهذا الرباط مع السيد ؟ عندما نصل الى هذا البهاء الروحي أيمكننا ان نهتم ببطل العالم وفساده ؟ أي شرير ، أي ماكر يمكنه ان يقف في وجه غنى الخيرات الروحية ؟اذا كان المسيح فينا فلن يدخل شر واحدٌ الى قلوبنا ، اذا كان يملأ قلوبنا بحضوره ويسكن في أعماق نفوسنا ويدخل اليها ويسود ويحوّطنا من كل جانب انه يطرد من داخلنا كل اندفاع مجرم لأنه ساكن فينا . انه يريد ان يملأ بذاته كل البيت ، يريد ان يملأ قلوبنا . ففينا لا يسكن قسم من المسيح بل المسيح كله ، ولا أنوار قليلة وأشعة روحية معينة بل الشمس الروحية كلها . اننا نصبح مع المسيح روحاً واحداً وبالمسيح يصبح الجسد والروح والقوى كلها روحية . ان القوى الالهية السامية تسود على القوى البشرية الوضيعة . يحدث ما يقوله الرسول بولس عن القيامة : « لكي يداس الموت بالحياة » (٢ قور ٥ : ٤) . او « أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ » (غلا ٢ : ٢٠) .

يا للسر العظيم الذي لا يدرك غوره ! نتحد مع المسيح اتحاداً يصبح فيه عقل المسيح عقلنا ، وارادته ارادتنا ، وجسده جسدنا ، ودمه دمنا . كم يرتفع عقلنا في الواقع عندما يسوده عقل المسيح وكم ترتفع ارادتنا اذا خضعت لارادته المغبوطة ؟ ان جسدنا كم يتنقى وهو الطين عندما يوجد وسط شعلة المسيح ! أيمكن ان نحقق مثل هذا الارتباط مع المسيح ؟ ان الرسول بولس يجيب على ذلك لأنه تمكن ان يجعل من عقله عقل المسيح ومن ارادته ارادةً له ومن حياته حياته « لنا نحن فكر المسيح » (١ قور ٢ : ١٦) ، « ومن المسيح المتكلّم فيّ اطلبوا برهاناً » (٢ قور ١٣ : ٣) ، « واني لاعتقد بأني أملك روح الله » (١ قور ٧ : ٤٠) ، « واشتاق ان يكون المسيح في أحشائكم جميعاً » (فيلبي ١ : ٨) .

يستدل من كل ذلك ان الرسول بولس كانت له ارادة المسيح ويعلن هذه الحقيقة اعلاناً صارخاً عندما يكتب ويقول: «لا أحيا انا بل المسيح يحيا فيّ» . يا لعظمة سر الشكر المقدس ! انه يقود الانسان الى قمة الخيرات ويشكل الكلمة الأخيرة للارتفاع البشري لأن الله يتحد بنا بواسطة هذا السرّ اتحاداً كلياً ونهائياً .

الدواء ضد الخطيئة

انّ جسد المسيح هو الدواء ضد الخطيئة، ودمه الكريم هو السبيل الوحيد الذي به يتخلّص الانسان من جريرته وثقل خطيئته . فجسد المسيح صار كنزاً للكمال الالهي وكان دائماً نقياً من كل خطيئة فأتمّ كل عدالة وبشّر بالآب بين البشر وكان مجهولاً عندهم وقتئذ .بشّر به قولاً وفعلا . هذا الجسد الذي نتناوله ذبح فوق الصليب وقاسى العذاب عندما اقتربت الساعة للتضحية فاستحم وسط عرق من دم . خانه يهوذا وقبض عليه وسيق مقيداً الى أمام فاعلي الاثم ، وشهد أمام بيلاطس الشهادة الصالحة كما يقول الرسول بولس . وبسبب شهادته العظمى تحمّل الموت ، موت الصليب . تحمّل هذا الجسدُ الذي نتناوله الجلد أيضاً،وسمّرت اليدان والرجلان وطعنت الجنب بحربة وتألم وقت الجلد ألماً عظيماً وعانى أشد العذاب عندما سمّر على الصليب . وهذا الدم الكريم ، دم المسيح الذي نتناوله عندما انسكب من الجراح ، أظلمت الشمس ومادت الأرض وتزلزلت وتقدس الفضاء وتنقى العالم كله من رجس الخطيئة .

لم تكن للناموس الحرفي ، ناموس العهد القديم ، قوة تجعل الذين يحافظون عليه كاملين لأنه ناموس ناقص. كان من الضروري ان يكشف

عن ناموس الروح، ناموس العهد الجديد الكامل والقادر ان يقود الانسان الى الكمال . ان الألم الذي يعانيه المسيحيون والدموع التي يسكبونها ليحوزوا من جديد على النعمة التي خسروها بسبب الخطايا بعد المعمودية لا يفيدانهم في شيء اذا هم لم يركضوا ويسارعوا الى دم العهد الجديد والى جسد المسيح الذي ضحّي على الصليب . ان سر الشكر هو السر الذي يعتق أمام عدالة الله أولئك الذين اعترفوا بانسحاق قلب أمام الله بخطاياهم . نعتمد مرة واحدة ولكننا نتناول مراراً لأننا كبشر نخطىء ولكي نتخلّص من خطايانا من الضروري ان نهرع الى التوبة والى الجهاد والصراع ضدّ الخطيئة ولكي نحظى بالغلبة علينا ان نتناول جسد المسيح ودمه الذي يشكل الدواء لشفاء الشرور الانسانية .

ثمار المناولة الالهية

ان الزيتونة البرّية اذا طعّمت بطعم صالح تتحوّل وتصبح زيتونة مثمرة وهذا ما يحدث تماماً معنا نحن المسيحيين . عندما نكون وحدنا نبقى بدون ثمر روحي ولكن عندما نرتبط بالمسيح ونتناول جسده ودمه ننال سريعاً عظم الخيرات ، غفران الخطايا وملكوت السماوات، أي ثمار التبرير التي يعطيها المسيح . نتناول جسد المسيح الذي يشكل ضمانة لتحقيق الغلبات الروحية والفتوحات السامية .

من الواضح ان حياتنا بعد المناولة الالهية يجب ان تصير مسيحية النوع، أي على شكل المسيح. « انتم جسد المسيح واعضاءٌ من اعضائه » (١ قور ١٢ : ٢٧) . ان كلمات الرسول تنطبق بالأكثر على أرواحنا وتنطبق على جسدنا، ويشير الرسول بولس عندما يقول: «الملتصق بالرب هو بالروح » (١ قور ١٦ : ١٧) الى الرباط الذي يربط نفسنا بالمسيح . ويشدد كثيراً على هذا الرباط . لذلك لم يأخذ المسيح جسداً فحسب بل روحاً وعقلاً وارادة وكل ما هو بشري ما عدا الخطيئة حتى يتحد كلياً مع وجودنا ويربط كل ما لنا بماله . مع الخطأة فقط لا يتحد المسيح لأنه خلو من كل خطيئة ولا علاقة له بها لانه بريء من الخطأ . لقد قبل السيد كإله رحيم كل عناصر حياتنا ما عدا الخطيئة وتنازل

ليتحد بنا بتنازله الذي لا يحد . فالمسيح الاله الحقيقي نزل الى الارض ليرفعنا الى السماء. صار انساناً ليرفع الانسان الى الله وبقي كانسان خلواً من كل خطيئة وصار الغالب الأزلي، وأعتق الطبيعة البشرية من الخطيئة والعار ، وكمخلص أعتق الانسان من جريرة الخطايا وصالحه مع الله . لم يكن بامكاننا ان نصعد الى السماء وان ننال هذه المواهب الكبرى ولذلك نزل المخلص الى الارض فأخذ ما لنا وأعطانا ما لا ثمن له من خاصته . أعطانا جسده ودمه . وبهذه الطريقة نستقبل الله ونقبله في نفوسنا .

من الواضح ان المسيح يدخل ذاته الى داخلنا بالمناولة المقدسة ويتحد معنا ويحوّل وجودنا وفقاً لحياته الخاصة . اذا سقطت قطرة من الماء في محيط من العبير فالقطرة تندمج في المحيط وتتحد به وتأخذ كل خواصه وتتحول الى عبير كالمحيط الذي سقطت فيه. فالمسيح هو الأريج الروحي وله كل القوة ليحول المؤمنين الذين يدخلهم بواسطة المناولة المقدسة الى أناس ليست حياتهم معطرة فحسب بل الى أناس يحملون كل عطر المسيح، « نحن عطر المسيح الطيب لله ولأولئك نفخة حياة للحياة » (٢قور ٢: ١٥) .

ان سر الشكر يعطي القوة والنعمة الى نفوس المؤمنين الذين يتناولون بقلوب نقية ويبقون بعيدين عن الخطيئة. ويتحد المسيح بالذين يستعدون قبل المناولة روحاً بطريقة لا تستطيع قوة مهما كانت ان تفصم عروتها. « ان هذا السر لعظيم جداً وأنا أقول هذا بالنسبة للمسيح والكنيسة » (أفسس ٥ : ٣٢) يقول الرسول بولس عن الوحدة الروحية بين المسيح والمسيحيين الذين هم أعضاء حقيقيون في الكنيسة. سر الشكر نور للذين يملكون قلوباً نقية ونفحة تعطي التقديس وقوة تشدد ارادة أولئك الذين يحتاجون الى التقديس . لا يوجد غير هذا النبع أمام أولئك الذين يصارعون ويكافحون ضد الخطيئة ليستقوا القوة المقدسة « دم المسيح

ابن الله لينقيكم من كل خطيئة » . يقـــول يوحنا الانجيلي (١ يو ١ : ٧) الذي تمتع بمحبة يسوع الخاصة . المسيح هو الوحيد الذي غلب الشر لذلك يشكل جسده الطاهر الذي مات على الصليب راية غلبة ضد الشر وعوناً قوياً للمجاهدين ضد الاهواء الخاطئة .

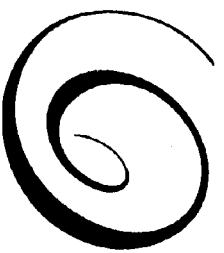

العبادة الحقيقية

من الضروري ان نتقدم باستمرار من المائدة الروحية لنتناول جسد المسيح ودمه حتى تبقى الحياة الروحية في داخلنا نشيطة . علينا ان نتقدم لا مرة واحدة بل تكراراً ودائماً . علينا ان نتناول الدواء الالهي ليجلس الخالق في الطين « الانسان » ويصلح صورته التي فقدت شكلها الحقيقي بسبب الخطيئة . ان يد الطبيب ، يد المسيح يجب ان تكون دائماً فوقنا لاننا متعرضون لخطر الموت بشتى الانواع « وكنا امواتاً في الخطايا فمشنا مع المسيح » (افسس ٢ : ٥) ودم المسيح ينقي وجدانكم من اعمال مائتة لتعبدوا الله الحي ». (عب ٩ : ١٤) يقول الرسول .

ان المائدة الروحية السامية تعطينا الحياة الروحية السامية . وسر الشكر المقدس ، هذا الجاذب الالهي الكلي القدرة يجذب ارواحنا الى فوق . فبسر الشكر نقدم العبادة النقية الحقيقية لله . لانه اذا كانت العبادة النقية هي الخضوع الكامل لله الذي يحرك ويوجه الكل . فمن الواضح اننا سنحصل على هذا الخضوع عندما نصبح اعضاء في المسيح بواسطة سر الشكر . الرأس يعطي الاوامر للاعضاء . « خبز الحياة » يجعلنا اعضاء في المسيح وكما ان اعضاء الجسد تعيش بالنسبة لعلاقتها بالرأس والقلب ، كذلك يقول الرب « من يأكلني يحيا فيّ » (يوحنا٦:٥٧) . لا شك ان الانسان يحيا بما يدخله الى اعضائه من غذاء والتغذية المادية

ليست حية لذلك لا تعطي الحياة . انها تساعد على الحفاظ على الحياة الموجودة . ولكن خبز الحياة ، المسيح ، ليس غذاءً فحسب يساعد الحياة بل هو نبع الحياة والذين يتناولونه يملكون حياة روحية حقيقية . ان خبز الحياة ، المسيح يحرك المتناول ويحوله ويدمجه بذاته .

اننا نسجد بواسطة سر الشكر لله ، بالروح والحق ، ونقدم له عبادة نقية ، والعشاء الروحي هذا يقيمنا من الموت الروحي ويعطينا حياة ، ويؤهلنا ان نعبد ونحن احياء الهاً حياً . لكن الانعتاق من اعمال الخطيئة المائتة ممكن فقط للذين يتناولون دائماً طعام الحياة هذا . وكما يجب ان نسجد « بالروح والحق » لان الله روح ، هكذا يجب ان نعبده بملء الحياة الروحية ، لا امواتاً روحياً لان الله هو الحياة ، « ليس الله اله اموات بل اله احياء » (متى ٢٢ : ٣٢) .

وقد يدعي البعض ان عبادة الله تتم عندما نقوم باعمال الفضيلة . هذه العبادة هي من صفات العبيد ، « عندما تفعلون كل ما امرتم به تكونون عبيداً بطالين لان ما يجب فعله فعلناه » (لوقا ١٧ : ١٠) . فالعبادة التي تقدم بواسطة كأس الحياة هي من صفات الابناء ونحن المدعوون اليها لا العبيد لذلك نتناول جسد المسيح ودمه ، « الاولاد يتناولون جسداً ودماً » فكما ان المسيح اتخذ جسداً ودماً بشريين فقال « ها أنذا والاولاد الذين اعطانيهم الله » (اشعيا ٨ : ١٨) كذلك نحن لكي نصبح اولاداً لله علينا ان نتناول جسد المسيح ودمه . بالمناولة لا نصبح اعضاء في المسيح فحسب بل ابناء نقدسه ونخضع له بكل نية قلب وكما يليق بالابناء . عندما نتناول نشعر بقربى نحو المخلص أشد من القربى التي تربطنا باهلنا الذين ولدونا . ان الوالدين بعد مضي وقت معين يتحررون من الاهتمام بابنائهم ، اما المسيح الذي خلقنا في الحياة الروحية وولدنا فهو حاضر دائماً ومتحد معنا . يستطيع الابناء ان يعيشوا حتى ولو فقدوا

اباءهم ، اما نحن فأذا انفصلنا عن المسيح فمن المستحيل ان نحتفظ بالحياة الروحية بل ننقاد حتماً الى الموت الروحي . ان خبز الحياة يدخل الى اعماق الانسان الجديد ويحث اصول انسان الخطيئة العتيق . المناولة المقدسة تعطي هذا القدر من الخيرات الروحية وبها ، اي بمناولة جسد المسيح ودمه ، ننعتق من الحكم الابدي ونطرح عالم الخطيئة ونملك بهاء الصورة الالهية ونتحد وثيقاً بالمسيح محمولين دائماً الى سمو الكمال .

الاستعداد الكبير

يمنع الرسول بولس من المائدة أولئك الذين لا يعملون لانهم لا يريدون : « من لا يعمل لا يأكل » (٢ سالونيك ٣ : ١٠). اذا كان الاشتراك في المائدة الأرضية يحتاج الى عمل فأي عمل سام ورفيع ، أية حياة روحية تلزمنا نحن الذين نتناول جسد المخلّص ودمه؟ علينا ان نقترب لنتناول القرابين المقدسة بعد تهيئة عظيمة وبعد ان ننقي أنفسنا من كل دنس الخطيئة بواسطة الاعتراف. علينا أيضاً ان نعرف ان المسيح الذي يقدم لنا وليمة سر الشكر الروحية هو قائد جهادنا، يمدّ يدَ المعونة لا الى أولئك الذين يرمون أسلحتهم ويسقطون ضعفاً خائري العزائم، واهي القوى ، بل الى أولئك الذين يكافحون بشجاعة ورجولة ضد خصمهم، والسيد الذي يعمل في كل سر يصبح كل شيء بالنسبة لنا عندما نجاهد روحياً، انه خالقنا ويصير أيضاً مروضنا ورفيقنا في الكفاح الحسن . انه يحممنا بالمعمودية ويمسحنا فيما بعد ويغذينا دائماً بسر الشكر. ان المناولة الالهية جائزة روحية تزين وتكلل المبرزين في الجهاد الروحي لان المسيح في هذا العشاء السري لا ينقي المتناول ولا يصبح رفيقه في الجهاد فحسب بل جائزة يجب ان ينالها المرء بعد ان يكافح الكفاح الحسن . وهناك ما هو أسمى من الحصول بالمناولة جوائز اتعاب الجهاد والكفاح في المسيح ؟ أهناك ما هو أسمى من الاتحاد به ؟ وعندما يتكلم الرسول

بولس عن جهاداته الكبرى يعبر عن شوقه عند خروجه من هذه الحياة وتتملكه رغبتان « رغبة الانحلال والوحدة مع المسيح هي الفضلى » (فيليبي ١ : ٣) . ان اشتراكنا في كأس الحياة يمنحنا الوحدة مع المسيح. وخبز الحياة هو الجائزة للمسيحيين الذين يكافحون ضد الخطيئة : الدم الطاهر والجسد المقدس . وبما ان جميع الذين يتناولون ما زالوا يقطنون الارض ويعبرون الحياة فلا يزال هناك خطر العثار والسقوط في يد اللصوص المخيفين . لذلك تعطي المناولة المقدسة القوة لهؤلاء وتصبح قائداً قوياً وتنقيهم حتى يصلوا الى الملجأ الامين ، الى الملكوت السماوي حيث يكونون باتحاد مع اكليلهم الأزلي ، المسيح .

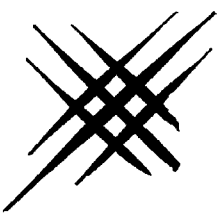

نبع الحياة والتقديس

بسر الشكر الالهي نحظى بالاشتراك الدائم مع الله. وبه نقدم عبادة حقيقية مرضية ، ونصبح أبناءً لله وأقرباء للمسيح عندما نشترك في العشاء الروحي . وهذه القربى أشد وأقوى من قربى الوالدين . يعطينا المسيح جسده ودمه ويصير لنا لا سبباً بسيطاً للحياة كما هو الحال مع الوالدين بل نبعاً للحياة . فالمؤمنون الذين يشتركون بعد استعداد في العشاء السري يجعلهم قديسين وابراراً لا لانهم تهذبوا كما يجب وعلّمهم ما يلزم ، هذّب نفوسهم وروّض ارادتهم على حياة التقوى الفاضلة ، بل لانه هو ذاته صار لهؤلاء حكمة من الله وعدالة وتقديساً وخلاصاً » (١ قور ١ : ٣٠) .

نتحد مع المغبوط فنصير مغبوطين . نتحد بالحياة فنتقدم نحن الاموات الى حياة روحية . بهذه الوحدة نصبح نحن الجهلة حكماء ونحوز على الحكمة الالهية ، ونصبح نحن الاشرار العبيد للخطيئة ابراراً وقديسين وابناء لله ، قديسين بالقديس وابراراً وحكماء بالمتحد بنا السيد القديس الصالح الحكيم . كل ما يملكه المسيح يصبح ملكاً لنا ، وبالمناولة نصبح اعضاء وشركاء في جسد المسيح ودمه وروحه . لهذا لا يكفي ان نتحلى بفضيلة عادية او ان ننال بعض الانتصارات الروحية فقط بل علينا ان نحيا

هذه الحياة الجديدة بالمسيح وكلنا مجبرون ان نحمل حياة المسيح المقدسة وان نحيا معه الحياة الجديدة، لاننا « دفنا معه بالمعمودية في الموت» حتى « نسلك حياة جديدة » (رومية ٦ : ٤). يطلب الرسول بولس عندما يكتب الى تيموثاوس « فز بالحياة الابدية التي دعيت لها » (١ تيمو ٦: ١٢) ان نحيا هذه الحياة، وكذلك الرسول بطرس « على مثال القدوس الذي دعاكم كونوا انتم قديسين في تصرفكم كله» (١ بطرس ١ :١٥).

كما ان الولادة في المسيح هي الهية وفائقة الطبيعة كذلك الحقيقة المسيحية والغذاء والحمية الضرورية للحياة في المسيح هي جديدة وروحية. شدد المسيح على هذه الحقيقة عندما قال لنيقوديموس : « المولود من الروح روح هو » (يوحنا ٣ : ٦) . بسر الشكر الالهي نلبس المسيح ونأخذ الوشاح الملوكي . كل الامور البشرية تذكر بالعبودية ولكن هناك الحرية والملكوت فكيف نصير احراراً روحياً واهلاً لهذا الملكوت اذا كنا لا نظهر فضيلة اكثر مما يظهره العبيد ؟ كما ان الفساد الذي تحدثه الخطيئة لا يستطيع ان يرث الحياة الروحية غير الفاسدة « يجب ان يلبس الفساد عدم الفساد، والمائت ان يلبس الخالد »(١ قور ١٥ : ٥٣) كذلك اعمال العبيد لا تكفي لميراث الملكوت السماوي بل تحتاج الى تبرير الله الذي يحول عبد الخطيئة لابن وارث ، لان العبد « لا يبقى في البيت الى الابد اما الابن فألى الابد » (يوحنا ٨ : ٣٥). فالمسيحي الملتهب بشوق ميراث الملكوت عليه الا يكون عبداً للخطيئة ليصبح ابناً يملك في داخله الابن الوحيد ويظهر في يوم الدينونة حاملاً لجمال السيد الروحي .

يتخلص الانسان من عبودية الخطيئة ويصبح حراً روحياً عندما يتحد بالمسيح . لقد اعلن المسيح هذه الحقيقة الجوهرية : « اذا حرركم الابن فانتم بالفعل احراراً » (يوحنا ٨ : ٣١) ، يحرر المسيح البشر من

الخطيئة ويجعل العبيد ابناء لانه هو ذاته حر من كل خطيئة وبريء من كل دنس . فالقديس في كل شيء يعطي للمؤمنين الجسد والدم والروح وبهذه الطريقة يعيد خلقنا ويحررنا ويقودنا الى التأله لانه يتحد ذاته معنا، وهو الاله الحقيقي ونبع الصحة الروحية والحياة والحرية . وبهذه الوحدة المستيكية والروحية يصبح المسيح خيراً نمتلكه نحن .

لن نحتاج الى شيء بشري بعد عبورنا هذه الحياة الوقتية . سنُسأل اذاك اذا كنا قد عملنا اعمال المسيح ونقشنا فضائله بطريقة لا غبار عليها في نفوسنا . لن نأخذ الاكليل الذي لا يذبل اذا لم نكن قد جعلنا نفوسنا مطابقة لحياة المسيح، ولم نظهر غنى روحياً يتجدد ويبقى بعيداً عن الفساد ، ولم نكن معتقين من كل خبث . يحوز المكافحون على الله كمكافأة لهم فعلينا ان تكون الجهادات الهية مطابقة للجائزة العظيمة الازلية . المسيح ليس بمدرب لرياضي الحياة فحسب بل قائد كلي القدرة لجهاداتنا الروحية وفي الوقت نفسه يتحد بالظافرين في حلبة الجهاد . يريد ان يقودنا من الارض الى السماء ، الى الله ، ان يعتقنا من كل شيء بشري دنيوي . اننا شديدو المرض في ارواحنا بسبب الخطيئة ونحتاج الى شفاء . لقد زارنا الطبيب الكلي القدرة وفتح اعين ارواحنا ووهبنا كل ما هو ضروري لشفاء مرض الخطيئة العضال . فالدواء والحمية للنفس هو المسيح . الخطيئة تفسد الانسان والمسيح يعيد خلقته، ويعيده من جديد واهباً له جسده . خلقنا من التراب الارضي ولكي يعيد خلقنا اعطى جسده ودمه ، وبتضحيته لا يجعل نفوسنا فقط اكثر حسناً بل يعطي لقلوبنا مع دمه الكريم حياته بالذات .

عندما خلق الله الانسان نفخ في وجهه « نسمة حية » (تك٢:٣) « هو الذي اضاء في قلوبنا لانارة معرفة مجده » ولا يعطي الان نسمة حياة بل يعطي روحه القدوس، « لقد ارسل الله ابنه الى قلوبكم منادياً ابا

الآب » (غلا ٤:٦) . وبكلمة واحدة قال : «فليكن نور فكان نور» فيما مضى كان الله يهب احساناته للانسان بواسطة المخلوقات ، بالاوامر ، بالنواميس، بالملائكة . اما الآن فانه يحسن الينا رأساً . لقد صار السيد كل شيء من اجلنا .

تكريس المذبح

ان الداعي لوجود الاسرار هو تحقيق الحياة الروحية وتهيئتها. وبما ان المذبح هو نقطة الانطلاق لكل خدمة مقدسة: سر الشكر الالهي، المسحة المقدسة، السيامة الكهنوتية او اتمام المعمودية فلننظر اذا كان لتكريس الهيكل علاقة بالأمور التي ذكرناها سابقاً.

في نظري ان بحث هذا الموضوع لا يعد انحرافاً ولا خروجاً. اننا ببحثنا هذا نتعمق في معالجة الموضوع وخصوصاً والقضية تتعلق بشيء اساسي، تتعلق بتتمة الاسرار المقدسة.

بعد استعراضنا للطقوس التقليدية التي يتمها الاسقف وفحصنا ما الذي يشكله الهيكل سندرس فيما بعد رمزية وفعل كل احتفال بتفصيل.

يأتزر الاسقف بمئزر ابيض يربطه حول خاصرتيه ويدية ثم يركع امام الله، لا على الارض العادية بل فوق مسند، ويتضرع مستنزلاً البركات الالهية والنعم المطلوبة. ثم ينهض ويبتدىء الاحتفال. يرفع المائدة وينصبها على قاعدة ويثبتها بنفسه لا بالواسطة ثم يغسل المائدة بماء ساخن بعد ان يكون قد طلب من الله ان يمنح هذا الماء الفضيلة التي لا تطهر الاوساخ الخارجية فحسب بل تطرد الشياطين ايضاً. ثم يمسح المائدة بالعطور

ساكباً فوقها اجود الخمرة وروح العطر (في نظري روح الورد)، وبعدئذ يمسحها بالميرون المقدس بعد ان يرسم فوقها اشارة الصليب ثلاثاً مرتلا لله نشيد النبي المعروف هللويا . ثم يغطيها بقماش ابيض ويزينها باستار ثمينة ويمد غطاء اخر فوق الغطاء الاول مدهوناً بالميرون . وهكذا يتم ستر المائدة كلياً وتصبح معدة لاقتبال الاواني المقدسة . بعد ان يفعل ذلك ينزع الرداء الابيض ثم يلبس البسة رؤساء الكهنة ويتوجه الى ملحق الكنيسة حيث توجد الذخائر الموضوعة والمعدة لمثل هذا الغرض. يأخذ الذخائر ويضعها فوق الصينية المخصصة للقرابين المقدسة ويرفعها فوق رأسه ويتقدم وسط المشاعل والاناشيد وامواج البخور ووسط حاشية من المؤمنين الى امام ابواب الكنيسة . فيقف هناك ويأمر الذين هم في الداخل ان يفتحوا الابواب ليدخل ملك المجد . وفي هذه الاثناء يردد المؤمنون والمرتلون الكلمات التي قالها داود والتي رددتها ألسنة الملائكة اثناء صعود المخلص (مز ٢٣: ١٠٧). فتنفتح الابواب ويدخل الى الكنيسة وعلى رأسه الصينية المغطاة. وعندما يصل الى المائدة يضع الصينية فوق المائدة ويرفع غطاءها ويأخذ الذخائر المقدسة ويضعها في علبة مقدسة موضوعة فوق المائدة مخصصة لحفظ الذخيرة . ثم يسكب فوقها الميرون ويضعها في المكان المخصص لها. ويجب ان تكون العلبة على المستوى اللائق بالكنوز الثمينة التي ستوضع فيها . من هذا التاريخ يصبح المكان بيتاً للصلاة والمائدة مخصصة للذبيحة، وتصبح مذبحاً غير مصنوع بيد .

رمز طقوس التكريس

بتفصيلنا لما يجري اثناء التكريس سنبين لماذا حصلت هذه الافعال، ولماذا حصلت المائدة على هذه النعمة بفعل رئيس الكهنة، ولماذا صارت المائدة مذبحاً. هذا العرض وهذا العمل الخارجي اللذان يبدأ بهما الاسقف يرمزان الى مذبح بشري . يقول النبي داود بعد ان يتطهر الانسان من كل دنس ويصبح ابيض كالثلج يتراجع ويعود الى ذاته ويدخل الله روحه ويجعل قلبه مذبحاً « فانك انت قوتي وملجأي » (مز ٣٠ : ٣) .

يأتزر الاسقف ثوباً ناصع البياض ويربط حول ظهره، وبعد ان يمثل المذبح بشخصه وهو واقف امام باب الهيكل يمد يد المعونة الى بيت التقديس . هكذا يفعل المهندسون قبل البدء بعملهم. ما رسمه الاسقف في عالمه الداخلي يسلمه الى اليدين لتحقيقه في المادة .

ينقل بعض الرسامين رسومهم الى القماش . ان فنهم ينحصر في نقل الالواح . وبعضهم يكتفي بما يذكرونه من مخلفات الخيال فينقلون ما يرونه في داخلهم وما تتأمله ارواحهم . يحدث هذا مع كل صاحب فن ومهنة . ولو كان بالامكان رؤية روح الفنان لرأينا فيها كل ما يفكر بخلقه في عالمٍ خالٍ من المادة . فالاسقف يقوم مقام المثال بالنسبة للمذبح لا لانه فنان بل لانه هيكل الله . ان الطبيعة الانسانية وحدها

تستطيع ان تكون هيكلاً حقيقياً من بين الكائنات المنظورة، وكل ما يصنع بالايادي البشرية ما هو الا كمثيل لذلك المثال وتلك الصورة. لذلك كان من الضروري ان يقدم المثال بهذا الشكل امام الصورة المطلوب ايجادها وان تترأس الحقيقة عملية التكريس . ان القائل: « اي مسكن يبنيه لي سأسكنه وسأبقى فيه » (اعمال ٧ : ٤٩) يقصد كما يبدو لي ان من اراد ان يكون نافعاً للغير عليه ان يبتدىء بمنفعة نفسه، وان من يتمتع بقدرة تهب مثل هذه الفضيلة الكبرى الى الكائنات الحية عليه قبل كل شيء ان يستفيد منها اولاً . ويفرض الرسول بولس على الاسقف بوضع النظام في بيته قبل ان يفكر بتنظيم الشعوب والمدن، وان يسلك بموجب العقل الصحيح قبل ان يحاول ادارة البيت (١ تيمو ٣ : ٢و٥) .

فالاسقف يحتاج الى الله ليتم العمل الذي يقوم بتحقيقه ، اذ لا يمكن تحقيق اي عمل بدون المساهمة الالهية وخصوصاً في الامور التقديسية حيث كل شيء متوقف على الله وعمله . وبما ان معلمنا المشترك لم يلب حاجات خدامه لا بواسطة ممثلين ولا بواسطة وسطاء بل جاء بذاته واعلن سبيل خلاصنا فلذلك يجب على الاسقف ان يثبت المائدة بيديه كتلميذ خاص به ، ان يثبت هذا النبع لهذه السبل من الخلاص . وهذا يفعله ويتلو في الوقت نفسه المزمور « اريد ان امجدك يا الهي وملكي » انه نشيد عمل النعمة واعتراف بجميل خيرات الله الباهرة . فاذا كان علينا ان نشكر الله على كل شيء فعلينا كما يقول الرسول بولس ان نشكره قبل كل شيء على مواهبه الرئيسية الخيرة . ثم يتلو المزمور « الرب يرعاني فلا يعوزني شيء » (مز ٢٣ : ١). لا يمجد هذا المزمور صلاح الله فحسب بل يرمز الى الاسرار. انه في الواقع يشير الى المعمودية، الى المسحة ، الى الكأس الى المائدة حيث يستقر الخبز المقدس . تسمّى المعمودية في هذا المزمور « مياه الراحة » ، « مكان خضرة » . وكاتب المزامير يعبر فيه عن أمله بالوصول الى هذا المكان بقيادة الله . في الواقع

ان الخطيئة تحمل معها موكباً من الشرور للذي يجسر ان يقترفها وتغطي الارض بالعليق. لهذا تسمى المعمودية التي تقضي على الخطيئة بالنسبة لآلام الحياة التي تهدي وبالنسبة للعليق «مكان خضرة»، واخيراً تسمى مكان راحة لاننا في المعمودية نحوز على الخير الاسمى ونرتاح بالسير في طريق الله. وتسمى المعمودية في هذا المزمور «مياه راحة» لانها كما يبدو لي تحقق رغبة الجنس البشري. انها الماء التي اشتاقها الكثيرون من الانبياء والملوك.

عندما يسجد الاسقف امام الله ويسأله ضارعاً لا يفعل ذلك داخل الهيكل. لماذا؟ أليس لان الهيكل لم ينل بعد قداسة التكريس؟ أليس لانه غير مؤهل بعد للخدمة؟ أليس لانه غير جدير باستقبال من يصلي ولم يصبح بعد بيتاً للصلاة؟ ان موسى كان يخلع حذاءه عندما كان يدوس ارضاً مقدسة حتى لا يحمل معه شيئاً يكون فاصلاً بينه وبين الله، وقد عاهد الشعب العبراني الله انه لن يدوس ارض المصريين الا والاحذية في رجليه.

عندما ينتهي هذا الطقس يطهر الاسقف المائدة المقدسة بالماء المقدسة. من الضروري قبل ان نخصص المائـــدة لسر من الاسرار ان نجردها بالتطهير من كل اثر للروح الخبيث لان ظالم الجنس البشري جعل مـن الانسان، ملك الطبيعة عبداً، وباستعباده استعبد الكائنات كلها لذلك قبل ان يستعمل الكاهن الماء للمعمودية يجردها مسبقاً من كل اثر للشيطان بالصلاة، ثم يتلو الكلمات التقديسية. وللسبب ذاته يغسل الاسقف المائدة بالماء الحاوي قوة التنقية. وهكذا يحدد الطريق الذي يجب ان نسلكه نحو الخير، اي بالابتعاد عن الشرير لهذا يرتل المزمور المنطبق على الشرور البشرية «تغسلني فأبيض اكثر من الثلج» (مز ٥٠). ثم يقدم الشكر لله ويمجده ويكرر ذلك في كل احتفال لانه يجب ان نعمل كل شيء لمجد

الله، وعلى الاخص الاسرار لانها جمة الفوائد وتصدر عن الله وحده .

لكي نصبح جديرين بنعمة الله لا يكفي ان نتنقى . يجب ان نبرهن قدر الامكان عن فضيلة مطابقة للتنقية . وهذا شرط أساسي لنكون محظيين لدى واهب هذه النعم . ان الله ينشر في الواقع بركاتـه لا على الذين ينامون في أحضان الكسل بل على الذين ينادونه متضرعين. يساعد من يكافح ، ويهب نعمة الفطنة لمن يفتشون عليها بطرقهم الخاصة . أي علينا ان نظهر رغبتنا في كل شيء ليس بالتمنيات بل بالجهاد الشخصي . لهذا السبب قبل ان يدهن الأسقف المائدة بالميرون الذي يستنزل عليه نعمة الله يعطرها بالعطور والخمرة ، مواد عطرية للبشر، الواحدة تبعث السرور والثانية تشدد الحياة . انه يقدم المادتين ليدلل على انه يقدم ما يستطيع الانسان تقدمته ، وانه يضحي له المفيد واللذيذ ما دام الله قد قدم الحياة وبغزارة لا من أجل خير الخلاص والقيامة بل من أجل خير الملكوت والغبطة الأزلية .

يدهن الأسقف المائدة بعد انتهاء الطقس بالميرون المقدس الحاوي كل فضيلة التقديس والذي يجعل المذبح جـديراً ومخصصاً للذبيحة . ولان المخلص استعمل الكلام واليد في الذبيحة أخذ الخبز وبارك (متى ٢٥ : ٢٦) لذلك نفعل ما فعله . فالكاهن يتلو في الحقيقة الكلمات ذات الفعالية العظيمة . كان المسيح يتلوها أفعلوا ذلك لتذكاري (لوقا ٢٢ : ١٩) ان الميرون المقدس ينوب مناب اليد لانه ، حسب قول القديس ديونيسيوس ، يـدخل يسوع المسيح . الرسل أنفسهم استخدمـوا في مثيل هذه الحالة أيديهم . كان ذلـك من امتيازاتهم امّا خلفاؤهم فيسرعون الى المسحة لأنهم لا يستطيعون ان يقدموا الا صوتهم . كانت الهياكل للكهنة الأولين أيديهم امـا لخلفائهم فالمسيح يبني بواسطتهم البيوت المعدة للمؤمنين .

أثناء نشر الكاهن للميرون المقدس على المائدة لا يرافق الطقس كلام كما في الطقوس السابقة . يكتفي بترنيم نشيد مؤلف من بعض العبارات « هللويا » موحى من الانبياء القديسين. انه لمستحب ان نمجد بكلام كثير ما تحقق ولكن يجوز ان نختصر أناشيدنا الى كلمات نرددها لنحقق تمجيد ما نستهدفه . يليق كما أرى ان نعرض مطولاً الأمور التي حصلت سابقاً والتي ستحصل فيما بعد حتى تحيي الكلمات ذكراها في الحاضرين. هكذا فعل الأنبياء حتى يوحنا . لكن عندما تحدث هذه الأمور شعورياً ، عندما تتم حوادثها أمام أعين المؤمنين فلا حاجة للكلام الا للتعبير عن الفرح والعجيبة . ابتداء من يوحنا لم نعد بحاجة الى مرسلين ما دام مَن أعلن عنه قد ظهر . لم يكن على يوحنا الا وان يعلن ويمجد من نزل على الارض وظهر للملائكة الذين رتلوا بصوت واحد المجد الله في العلى . والأسقف للسبب نفسه عندما يرى المحسن حاضراً لا يستدعي النعم التي منحت بصلاته ولا يعدد خيرات التنازل الالهي المشعة أمام العيون بل يكتفي باظهار ابتهاجه بهذا النشيد السري .

بما ان كل نعمة المائدة تأتي من الميرون المقدس فمن الضروري ان تكون المادة التي تقبل التقديس اهلاً لمثل هذه النعمة لتصبح فعالة كما هي النار والنور بحضور مادة مؤاتية لذلك. فاسم المخلص لا يمكن ان يكون له النعمة ذاتها على كل الشفاه التي تستدعيه. لهذا نرى الأسقف لا يستعمل غير عظام القديسين لدهنها بالميرون كشيء جدير فقط بمثل هذا الكنز من النعم . يدهن الأسقف العظام ويضعها في جسم المائدة وهكذا يكتمل المذبح .

لا شيء كالشهداء في صلاتهم الوثقى مع المسيح. أنهم يشبهونه بالجسد والروح وطريقة الموت وفي كل شيء. عندما كانوا أحياء كان المسيح فيهم وعندما ماتوا لم يترك بقاياهم المقدسة بل ظل متحداً بروحهم وهكذا

اتحد واختلط بهذه المادة ، بهذا الغبار الجامد واذا كان بالامكان امتلاك الله في مكان من الارض فالمكان هو عظام القديسين .

عندما يصل الأسقف الى عتبة الكنيسة بذخائره يفتح لها الابواب بالكلام ذاته وبانشاده لها يدخل المسيح ذاته فيقدم لها التكريم الذي يقدمه للقرابين المقدسة . وفي الواقع ان هذه الذخائر هي الهيكل الحقيقي. البناء ليس الا مثالاً فمن الضروري ان نضيف هذه العظام الى البناء لتكملته كما يكمل العهد الجديد القديم .

بعد انتهاء الاحتفالات وبعد ان اصبح البناء مخصصاً للصلاة ينسحب الاسقف بعد ان يشعل شمعة فوق المائدة ليدلل على ان الوقت وقت ذبيحة . وفي الواقع عندما تشعل المشاعل عند المساء يذكرنا المشعل بما حدث في بيت من فقد الدرهم . فقد اشعل المسيح المشعل ووجد بنوره الدرهم الضائع بين الغبار التي غطته والظلمات التي حجبته ، والنائم بين الصفائح كأنه تحت الثرى ، والواقع اذا نظفت البيت تكون النتيجة العثور على الدرهم واعادة النور الى البيت ، والمشعل هو الذي اغرق البيت بالنور ، يمسح الاسقف كل البناء ليصبح كله بيتاً للصلاة ويصبح الاسم موافقاً له لان المسحة المنتشرة ، اي المسيح المخلص شفيعنا ووسيطنا عند الآب الذي يقدمنا لله ويصعد كالبخور صلواتنا. في الواقع الابن الوحيد للآب انتشر في عالم العبيد وعلى هذا الشكل قبل الآب مصالحتنا . القى نظرة علينا واقترب منا عندما اقتربنا منه ووجدنا كما يجد ابنه الحبيب . فمن الضروري ان ننشر مسحة الصلاة في كل البيت ليجذب البيت الله كما يقول سليمان الحكيم. وبما ان البناء يقال له هيكل الله، ولكي يكون في علاقة مع المسيح بالمسحة كما قبل المسيح مسحة الالوهة، اعني بالهيكل الحقيقي جسده المقدس حسب قوله اهدم هذا الهيكل .

تنازل السيد

اراد الله ان يخلص الجنس البشري . لم يرسل ملاكاً لخلاصنا . جاء هو . لم يرسل ملائكة بل تجول بذاته بين البشر وطلب اولئك الذين سيلبون دعوته المخلّصة . لقد اعطى بتعليمه اسمى الخيرات . كان يزور المرضى في بيوتهم وكان يوزع الاشفية في كل مكان ، حيناً بحضوره فقط وحيناً بوضع يديه . وهب النور للمولود اعمى ، نادى اليعازار الميت منذ اربعة ايام فاقامه صوته . اظهر قوته العجائبية الخارقة فتراجعت كل القوى امام قوته . اظهر رحمته الكبرى التي من اجلها قبل وتنازل وجاء الى الارض . كان من الضروري ان يتحرر المقيدون في الجحيم . لم يضع عملية خلاصهم على عاتق الملائكة ورؤساء الملائكة بل نزل بذاته الى معتقل الجحيم . لم يضع عملية خلاصهم الا على عاتقه . لكي ينعتق الاسرى يجب ان يُشتروا وقد انعتقوا بعد ان اشتروا بدم السيد. لقد نظفنا بدمه من الخطيئة واعتقنا من كل مسؤولية وجريرة . ان الرسول يشدد على هذه الحقيقة المفرحة عندما يكتب ويقول : « ولما طهر العالم من الخطايا ، جلس عن يمين ذي الجلال في العلى » (عب ١ : ٣) .

يسمى يسوع خادماً لان الآب ارسله الى العالم ليخدمنا نحن

الخطأة . والعظيم انه خدمنا عندما اتى كأنسان ضعيف . انه فعل ما يفعله العبد . لم يظهر بمظهر السيد انه لم يأتِ ليدين بل ليخلص العالم ، وعندما يأتي بقوة ويظهر بمجده الابوي لا كعبد بل كملك أزلي كلي القدرة . سيخدمنا ايضاً . قال ذلك بنفسه : طوبى للعبد الذي يجده مستيقظاً « الحق اقول لكم : انه يشد وسطه ويُجلسهم للطعام ، ويطوق بهم يخدمهم » (لوقا ١٢ : ٣٧) .

ان السيد الحقيقي يأخذ شكل عبد ويخدم العبيد حتى موت الصليب وبهذه الطريقة يسود ويملك على نفوسهم . يسود بعد ان صار خادماً وضيعاً ، « وضع نفسه حتى صار تحت حكم الموت ، موت الصليب لهذا رفعه الله واعطاه اسماً فوق كل اسم لكي تسجد كل ركبة فوق السماء وعلى الارض وتحتها لاسم يسوع »(فيليبي ٢ : ٨ — ١٠) . وقد اعلن النبي اشعيا هذه الحقيقة قبل اجيال: « انكم لا بعجلة تخرجون ولا كمن يهرب تسيرون بل امامكم يسير الرب ويجمعكم اله اسرائيل » (اشعيا٥٢:١٢) .

طريق السمو

ان جسدنا مادي . من الارض أخذ والى الأرض يعود . أما حياتنا الروحية فتولد من الله . غذاء الجسد شيء ، وغذاء الروح شيء آخر : الروح التي تنمو وتحتفظ بالحياة في المسيح. يتغذى الجسم بخيرات مادية. أما الانسان الجديد ، الانسان الروحي فيغذيه السيد بجسده لهذا يعود الجسد الى الارض التي أخذ منها وتتحد النفس أزلياً بالمسيح الذي أخذت منه حياتها الروحية . يصبح الانسان المتحد بالمسيح سماوياً « كما هو السماوي كذلك هم السماويون » يقول الرسول بولس : (١ قور ١٥ : ٤٨) . يصير المسيحي سماوياً لا بروحه فقط بل بجسده أيضاً . يصبح الجسد سماوياً لأنه عضو في المسيح السماوي . فكما ان المسيح الذي قام من بين الأموات « لا يموت ولا يتسلط عليه الموت »(رومية ٦ : ٩). كذلك المسيحيون هم أعضاء حية للمسيح انهم لا ينتهون الى الموت بل الى الحياة لانه كيف يمكن ان تنتهي بالموت الاعضاء المرتبطة بالرأس والقلب الحيين أبداً ؟

ما هي قيمة جسدنا وما قدرته ؟ كل الاجساد غبار ورماد ولكن في أعماق هذه الاجساد غنى روحياً عجيباً يكمن فيها وهذا الغنى هو ما نسميه بالانسان « حياتكم مختبئة بالمسيح » (كولوسي ٣ : ٣) . ان

جسدنا وعاء من خزف تنطوي فيه الكنوز . «ولنا هذا الكنز في آنية خزفية ليكون فضل القوة لله لا منّا» (٢ قور ٤ : ٧) . ان جسدنا، هذا الطيف الخفيف الرخيص سيلبس جمالاً أزلياً عندما يتحد بالمسيح وسيكون في أحد الأيام شعاعاً نيّراً من أشعة الشمس العدلية وسيطلع الصديقون مشعين بالبهاء والمجد وسيصعقون فرحاً وتهليلاً لان خبز الحياة ، جسد المسيح ، النور الحقيقي سينير المختارين وسيكون مع الصديقين دائماً وسيلمع في الحياة الأخرى أولئك الذين اجتازوا حياتهم متحدين بالمسيح وسيظهر السيد بمجدٍ فوق السحب وسيأخذ معه أولئك الذين صاروا أعضاءً من أعضائه وسيكون الله وسط آلهة ، وسط مختاريه ، سيكون الجميل على رأس الجمال . ان أجساد القديسين تلحد الآن وتسلم الى الفناء لكن عندما يظهر المسيح الغالب للفناء سنعيش حينئذ احراراً مع العادم الفساد . « نخطف جميعاً في السحب لاستقبال الرب في الهواء وهكذا نكون مع الرب دائماً » (١ سالونيك ٤ : ١٦) .

سيخطفنا السيد . لن ينتظر ان نطلبه . سيفتش عنّا بذاته حيث نكون وسط خطايانا غارقين ويرشدنا على الطريق التي يجب ان نسلكها ويحملنا على كتفيه اذا لوت ركبنا ضعفاً ووهناً ، ويقيمنا بعد كل سقطة ويدعونا عندما نبتعد ، ويستعمل كل السبل لخلاصنا وسيقيمنا بحضوره الثاني وسيعطينا أجنحة لنطير لاستقباله وسيطير أولئك الذين يتناولون جسده الطاهر ودمه الكريم بعد الاستعداد لملاقاته . هؤلاء سيأخذون النعمة والخلاص والفرح الرباني وسيدخلون الى الخدر السماوي المشع بالأنوار وسيتمتعون بالخيرات الأبدية الخالدة .

الحفاظ على الحياة في المسيح

لا شك ان المسيح يلد في عالمنا الداخلي الحياة به . اما الحفاظ عليها فهو من عملنا اننا بالسهر والاهتمام والرعاية سنتجنب خطر ضجور الحياة في المسيح وسنفر من هذا العالم حاملين كنزها سالماً . على المسيحيين المدعوين بالمسيح واجب واحد ، ان يحفظوا نواميسه الالهية ويرتبوا حياتهم وفقاً لارادته. انه واجب مقدس يثقل كاهل البشر على اختلاف اعمارهم ومهما كانت اعمالهم ،أسكنوا مجاهل الارض ام استوطنوا صحاريها ام عاشو في ضوضاء الحياة وغرقوا في ملذاتها .

ان تطبيق الحياة المسيحية ليست من الاعمال التي تفوق قوى الانسان ما دام الانسان يتقوى بالنعمة الالهية . لو كان تطبيقها من الامور التي تفوق القوى الانسانية لما عوقب متجاوزو الوصايا المسيحية من الله . لا احد يجهل ان المسيحي الحقيقي ملزم باتمام الوصايا المسيحية طوال حياته . من يقترب من المسيح يشتاق ان يتبعه في كل شيء ويصبح شوقه عهداً مقدساً يقيده مدى الحياة . الواجبات النابعة من تعليم المخلص هي ملك مشترك لكل المسيحيين يحققها الذين يرغبون بتطبيقها وهي ضرورية ، بدونها يستحيل على المرء ايا كان ان يرتبط بالمسيح . ما الفائدة اذا كانت الخطايا تملؤنا ، اذا كانت اعضاؤنا ميتة ، ما الفائدة من

كوننا ولدنا بالمسيح ، ما الفائدة ان ندعى اولاداً لله ؟ في هذه الحالات يخشى ان يصيبنا ما اصاب اغصان الكرمة التي قطعت من الكرمة الحقيقية لتلقى في النار ليبوسها .

من رغب في ان يحيا في المسيح وقرر ذلك عليه ان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقلب الروحي وبرأس جسد الكنيسة ، بالرب . اذا رغبنا ما يرغبه المسيح فسنحقق هـذا الرباط الذي هو الكل في الكل في الحياة الروحية واذا أردنا ان يكون قلبنا ملكاً للمسيح علينا ان نروّض ارادتنا ونهيء نفوسنا لتسر بما يُسرّ له . فلا يجوز أبداً ان ننساق وراء رغبات مختلفة . الضدان لا يمكن ان يجتمعا في قلب واحدٍ . الرجل الخبيث لا يخرج من قلبه غير الخبث اما الصالح فالصلاح . ان المسيحيين الأوَل كانوا يلتهبون بمثل هذه الرغبات السامية المقدسة «القلب والنفس كانا شيئاً واحداً عند جموع المؤمنين » (أعمال ٤ : ٣٢) . ان المسيحي الذي لا يفكر بما للمسيح ولا ينظم حياته وفقاً لحياة السيد ولا يقدس قلبه سيلتصق قلبه حتماً بالأمور الدنيوية الفاسدة . وجد الله النبي داود « انساناً حسب قلبه » . لم يحد عن طريق الحق ولم ينسَ وصايا الله . « عن طريق الحق لم أمل وخطاياي لم أنسَ » أيمكن ان نعيش اذا لم نعلق قلبنا بالقلب الحي الأبدي ؟ أيمكن ان نحيا حياة روحية ؟ علينا ان نحب وان نريد ما يريده ويحبه المسيح ليكون لنا مثل هذا التعلق الذي يهب الحياة والفرح بالمسيح .

الرغبة تسبق كل عمل والفكر يسبق الرغبة ولكي يكون قلبنا مليئاً بالأشواق الحارة المقدسة السامية ، بعيداً عن الرغبات الشريرة علينا ان نبعد نفوسنا مهما كلف الأمر عن كل تفكير بطال حتى لا يكون فيها اي مكان للشيطان. قد ينجذب العقل بأمور كثيرة وكذلك النفس. قد يهتم في هذه القضية أو تلك وقد تنشغل في هذا الامر أو ذاك لكن النافع

والمفيد والمفرح هو التكلم عن الغنى الروحي والتفكر بمواهب النعمة التي نستمتع بها . من كنا قبل ان نعرف الحقيقة ، قبل ان نعرف المسيح ؟ ما هي الاحسانات الروحية التي تمتعنا بها بعد ان استنرنا بنور المعرفة الذي لا يخبو ؟ أية حياة كانت تلك التي قضيناها تحت نير العبودية ، نير الخطيئة القاسية ؟ أية خيرات روحية تمتعنا بها وذقناها حتى الآن والى أية خيرات روحية نحن مدعوون ؟ الى أي ملكوت روحي ، الى أية حرية روحية ندعى ؟ من يعطينا هذا الغنى من الخيرات ؟ من هو جمال هذه الخيرات الازلية ؟ ما هي محبته وصلاحه للانسان؟عندما تستحوز على نفوسنا وعقولنا كل هذه الافكار وتسودها فمن الصعب ان تتجه أفكارنا نحو أمور خاطئة مجرمة لان المواهب الروحية التي ستستأثر على أفكارنا ستغلب بعمقها وغزارتها الافكار الوضيعة ولن تتركنا ننجرف وننساق وراء الافكار البطالة المضرة .

اعضاء المسيح

لنفكر اننا أعضاءُ المسيح . أهناك ما هو أسمى وأجدى من هذا التفكير ؟ عندما تسود هذه الأفكار المبهجة على نفوسنا يزداد الشوق الازلي فينا ولن تجد الافكار الشريرة سبيلا الى نفوسنا . عندما نفكر باحسان المخلص العظيم يزداد شوقنا نحو المحسن الازلي ويصبح كثير الوهج وبهذه المحبة للرب نصبح بسهولة فعلة لوصاياه. « من أحبني حفظ وصيتي » (يوحنا ١٤ : ١٥) .

عندما نفكر بأننا أعضاء للمسيح يستولي علينا الشعور المدرك الكامل بالمنزلة الكبرى التي سمونا اليها وهكذا لن نسلم نفوسنا الى الخطيئة ولن نقبل ان نخدم العاصي والعبد الضار ، الشرير ، ولن نفتح فمنا عندما نفكر بأننا مدعوون الى الملكوت السماوي كأعضاء للمسيح ولن نترك لساننا يرشق الكلمات الشريرة . أيمكننا ان نجعل فمنا آلة للخطيئة اذا فكرنا ان المخلص قد صَبغ لساننا بلون الارجوان بمناولتنا لدمه الكريم المقدس ؟ أنجيز لأعيننا وهي التي رأت جسد ودم المخلص ان تجول في الاماكن المسببة للخطيئة ؟ اذا حافظنا على تفكيرنا حياً بأننا أعضاء مكرمة للمسيح تحوى كقارورة دم السيد أو بالاحرى كل السيد فلن نحرك أرجلنا ولن نمد أيدينا الى ما يسبب الخطيئة .

اننا أعضاء للمسيح والمسيح في داخلنا . ليست الوحدة التي لنا مع ثيابنا وجلدنا وعظامنا كالوحدة التي لنا مع المسيح ، مع رأسنا الروحي ونحن أعضاؤه . يستطيع المرءُ ان يجردنا من ثيابنا قسراً عنا . يمكنه ان يجردنا من أجسادنا اما عن المسيح فلا اذا لم نرد نحن . لا يستطيع ذلك لا انسان ولا شيطان . « أيقنت انه لا موت ولا حياة ،لا رؤساء ولا قوات لا حاضر ولا مستقبل لا علو ولا عمق لا خليقة أخرى تستطيع ان تفصلنا عن محبة المسيح يسوع (رومية ٨ : ٣٨ — ٣٩). ان الشهداء هم البرهان. لقد انتزع الشيطان بيد الجلادين أحشاءهم وسلخ جلدهم وفصل اعضاء اجسادهم وسحق عظامهم لكنه لم يتمكن ان يبعدهم بكل ما لديه من أحابيل عن المسيح . كان عمله مشجعاً لهم في ايمانهم وجاءَ بنتيجة معكوسة فالتصقوا به التصاقاً أوثق ومكن وحدتهم به وجعلها وحدة مستمرة الى الابد .

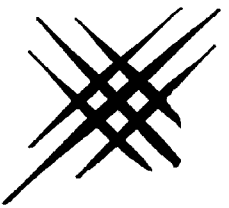

احترام نفوسنا

أهناك ما هو أجل من الجسد الذي يتحد به المسيح بالمناولة الالهية؟ عندما ندرك أي بهاءٍ مستيكي يحوزه من هذه الوحدة السرية ونفكر بالشرف الذي سما اليه فمن الطبيعي ان نحتفظ بالجسد نقياً مقدساً نظيفاً ونكرمه . فاذا كنا نوجه كل اهتمامنا وعنايتنا لنحافظ على الاواني المقدسة بعيدة عن كل دنس ووسخ فأحرِ بنا الا ندنس الجسد هذا الهيكل الحي . لا يوجد ما هو أقدس من الانسان في العالم . فالله ذاته لبس الطبيعة البشرية ، وصار في كل شيء شبيهاً بنا ما خلا الخطيئة . لنتذكر لمن « كل ركبة في السماء وعلى الارض وما تحت الثرى تنحني » (فيلبي ٢ : ١٠) ومن سيأتي « فوق السحاب بقوة ومجد عظيمين » ببهاء لا يوصف ؟ من غير ابن الله ، وابن الانسان في وقتٍ واحدٍ . نستطيع نحن ان نلمع كالشمس وان نرتفع في ذلك اليوم فوق السحب ونرى جسد الله ، الانسان الممجد ما دامت الطبيعة البشرية قد سَمَت الى هذا القدر في شخص المسيح .

عندما سيظهر السيد سيحيط به مصف العبيد الصالحين . يا للمشهد العجيب! انه لعجب باهر ان يرى الانسان جموعاً عديدة من الاقمار فوق السحب واشعاع المؤمنين ، وضياء السيد وجوقة هؤلاء الرجال . انه

لعجيب ان يرى هذا الحفل الازلي، هذا العدد العديد من الآلهة القديسين الذين يحيطون بالاله الحقيقي . ان يكون الجميلون حول الجميل والعبيد حول السيد الصالح . لن يتردد السيد في ان يعطي قسماً من مجده الخاص وبهائه الى عبيده الصالحين . لن يخاف على مجده من النقصان مهما كثر القديسون الابرار الوارثون لملكوته، يستطيع ملوك الارض ان يعطوا كثيراً لمحكوميهم ولكنهم لا يجعلونهم قط ورثة في التاج ولا شركاء في سلطتهم . امّا السيد الازلي ، الملك الكلي القدرة فلا ينظر الينا كعبيد ولا يعطينا كرامات تليق بالعبيد . أنه ينظر الينا كأصدقاء ووفقاً لناموس المحبة يصبح ما له ملكاً لنا . لا يعطينا لا هذا ولا ذاك بل الملكوت الازلي ويلبسنا الاكليل الخالد . ان بولس الرسول يعبّر عن هذه الحقيقة المفرحة تعبيراً حياً ويريدها ان تنحفر في قلوبنا « اذ كنا ابناء وارثين فنحن ورثة الله ومشاركون للمسيح في الميراث » (رومية ٨ : ١٧) « واذا صبرنا فسنملك معه » (٢ تيمو ٢ : ١٢) .

أي مشهد أبهى وأجل من مشهد السيد والوارثين معه ؟ جوقة من المغبطين وجموع من البشر الطافحين بشراً، وشمس من العدل اللماعة من المجد الالهي ستنزل الى الارض من السماء في اليوم الاخير وستظهر الارض شموساً أخرى ستسرع لملاقاة شمس العدل واذاك سيمتلىء الكل بالنور، وسيكون آنئذ مع المسيح الذين قضوا حياتهم في دراسة كلام الله ، ومع الفقراء بالألم والمحبة ومع المسيح بالرغبة والجد، سيكون مع المسيح أولئك الذين تشبهوا بآلامه وأعطوا نفوسهم للسيف وأجسادهم للجلد والحريق والموت يشيرون الى الجراحات في أجسادهم المشرقة بالمجد والتي قبلوها راضين من أجل المسيح ويرفعون آثار الجراح كرايات لغلبتهم وظفرهم . كل هؤلاء سيشكلون الفئة الظافرة التي غلبت بجراحاتها كما غلب الملك الازلي لانه ذبح . نرى يسوع بالآلام متوجاً بالمجد والشرف

(عب ٢ : ٩) . عندما ندرس هذه الامور ونفكر بها سنرى كم رفعنا السيد الجزيل الرحمة عالياً . واحتراماً لهذه الرفعة لذواتنا سنبتعد عن الخطيئة .

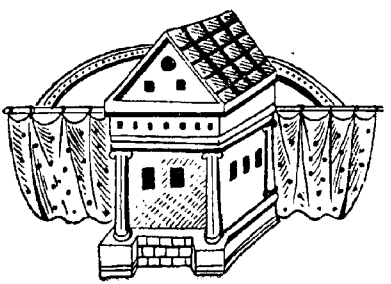

اعداء التوبة

ان دراسة الامور الالهية السامية ستحمينا من الخطيئة وستساعدنا حتى ولو سقطنا على النهوض لانه عندما يتوفّر هذا القدر من الوسائل لخلاصنا فمن المخيف الا يعود الانسان الى ربه بعد الخطيئة والا يقبل ان يتوب خجلاً وخوفاً وان ينظر الى الطريق كطريق صعب متعب وان يعتقد ان الله لن يقبل توبته مهما كلف الامر لانه غاضب. ان الايمان بأن رحمة الله لا تحد جدير بأن يعتق النفس من هذا التضعضع المدمر . فأذا كان الانسان يعرف مقدار صلاح الله فلماذا هذا الشعور بصعوبة التوبة عن الخطايا التي فعلها ؟ هذا هو فن الشرير وهذه هي آلته ، عدو الانسان العام ، الشيطان . فنه ان يجـر الانسان الى الخطيئة فيلقي بنفسه في احضانها بوقاحة وجرأة . العدو غير المنظور يدخل الى النفس الخاطئة بعد اقتراف الخطيئة التي ارتكبتها الشعور بالحياء والخوف ليدفعها من جديد الى احضانها حتى تغرق هناك فلا تستطيع ان تنتصب البتة . يحاول بالخجل والخوف ان يبعده عن الله نهائياً وان يرميه في هاويـة الضلالة .

لذلك علينا ان نحصن ذواتنا ضد الجرأة على الخطيئة وضد الخجل والخوف أيضاً اللذين يعقبان جرم اقتراف الخطيئة. الخوف بعد اقتراف

(عب ٢ : ٩) . عندما ندرس هذه الامور ونفكر بها سنرى كم رفعنا السيد الجزيل الرحمة عالياً . واحتراماً لهذه الرفعة لذواتنا سنبتعد عن الخطيئة .

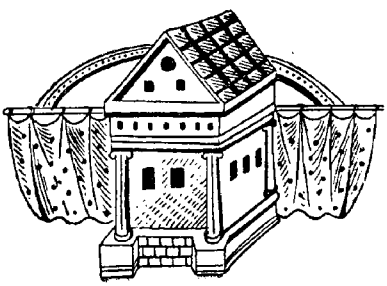

اعداء التوبة

ان دراسة الامور الالهية السامية ستحمينا من الخطيئة وستساعدنا حتى ولو سقطنا على النهوض لانه عندما يتوفّر هذا القدر من الوسائل لخلاصنا فمن المخيف الا يعود الانسان الى ربه بعد الخطيئة والا يقبل ان يتوب خجلاً وخوفاً وان ينظر الى الطريق كطريق صعب متعب وان يعتقد ان الله لن يقبل توبته مهما كلف الامر لانه غاضب. ان الايمان بأن رحمة الله لا تحد جدير بأن يعتق النفس من هذا التضعضع المدمر . فأذا كان الانسان يعرف مقدار صلاح الله فلماذا هذا الشعور بصعوبة التوبة عن الخطايا التي فعلها ؟ هذا هو فن الشرير وهذه هي آلته ، عدو الانسان العام ، الشيطان . فنه ان يجـر الانسان الى الخطيئة فيلقي بنفسه في احضانها بوقاحة وجرأة . العدو غير المنظور يدخل الى النفس الخاطئة بعد اقتراف الخطيئة التي ارتكبتها الشعور بالحياء والخوف ليدفعها من جديد الى احضانها حتى تغرق هناك فلا تستطيع ان تنتصب البتة . يحاول بالخجل والخوف ان يبعده عن الله نهائياً وان يرميه في هاويـة الضلالة .

لذلك علينا ان نحصن ذواتنا ضد الجرأة على الخطيئة وضد الخجل والخوف أيضاً اللذين يعقبان جرم اقتراف الخطيئة. الخوف بعد اقتراف

الخطيئة لا يقود الى الخير بل يشكل تخديراً للنفس. الخوف والخجل لا يفيدان شيئاً. اننا لا نخجل من جراح الخطيئة ولا نطلب ان نجد من يشفينا بل نحاول بالخجل ان نبعد أعيننا عن المخلص كما فعل آدم بعد المعصية اذ اختبأ خوفاً وخجلاً. كان آدم مجرحاً بجراحات قتّالة من جراء الخطيئة وكان يتهرب من يد الطبيب وكان المفروض ان يسعى اليه ويفتش عنه والاّ يترك الخطيئة تنتصر والاّ يخفي ضعفه ويلقي الذنب على المرأة وحدها. ان قايين بعد ارتكابه جريمته حسب ان عين الله لا تراه، حسب ان الله لا ينتبه لعمله. الله يعرف كل شيء ويراقب كل شيء.

بعد الخطيئة يولد في النفس حزن يقود اما الى النهوض واما الى الدمار والضياع. الحزن الذي عاناه بطرس بعد نكرانه للمسيح يشهد على ان الحزن كان من أجل المسيح. لقد تألم بطرس وبكى بكاءً مراً وأعاد بدموعه رتبته الرسولية الى جانب المسيح. اما الحزن المدمر القائد الى الفناء والعدم فهو الحزن الذي عاناه يهوذا العبد الغاش. في اللحظة التي كان فيها المخلص يحرر العالم من عبودية الخطيئة بالصليب كان يهوذا بحزنه المدمر العنيف يفقد الرجاء بتنقية روحه فيدفع بنفسه لحبل المشنقة وينتحر. لنحزن على عدم الاعتراف بالجميل نحو الكلي الصلاح. ان حزناً كهذا لا يحمل أي ضرر للنفس. يصاب البعض بعد الخطيئة بالضجر ويشعرون بالمرارة والألم النفسي وبما يضغط صدورهم وقلوبهم ويشعرون بألم عميق ويعتقدون ان حياتهم عبء ثقيل لا يحتمل. ان هذا الحزن عدو مدمّر يقود النفس الى الموت الابدي.

ماذا يجب ان نفكر ؟

ان الحزن الذي يلي الخطيئة، الحزن المليء بالنعم والمواهب الروحية يتأتى من المحبة للمسيح . لنغوصنّ في هذه الافكار التي يملؤهـا المسيح وندرسن كثرة رحمته . يجب ان تسود الافكار التي لـارب على مخيلتنا وان تسري في نفوسنا وتصبح شغل عقلنا الشاغـل . لنفكرنّ بالرب ولنتكلم عنه في وسط الجماعة . لنشعر بالفرح عندما يكون الكلام عن المخلص ولنحاول ان يكون اهتمامنا محصوراً بالرب لانه بالدرس المتواصل سيحتل المخلص قلوبنا وسيملك على أرواحنا . لكي تبقى النار ملتهبة يجب ان تبقى على اتصال دائم بالمادة المحرقة وكذلك نحن لكي نشعر بنار المحبة علينا ان ننجذب بالمسيح ونوجه فكرنا نحو شكله الالهي .

ان فكر الانسان ينجرف بسهولة بالأمور الشريرة . الـلذة الحسية والافكار الوضيعة تسبب رغبات تكوين الانسان . والحواس التي نشعر بقوتها تدفع دائماً الى تفكيرات خاطئة تصبح بسهولة الرفيـــق الدائم للانسان وتخدع القلب لانها تبقى فيه مدة طويلة ولانها توقظ فيه لذة كاذبة . الفكر يتجه بصعوبة نحو الامور الروحية وذلك بعـد دراسة مستمرة وبحث طويل . ان محبة لاهبـــة فقط تستطيع ان تبعث في الانسان فكرة الخير المفيـــد الذي لا يسر الانسان العتيق وبالمطالعة

الروحية الدائمة والمحاولة المستمرة للتخلص من ربقة الخطيئة نستطيع ان نتخلص من الافكار ذات المضمون الخاطىء والقائدة الى الخطيئة . علينا ان نفكر بالأمور الحقيقية بدلاً من الأمور الظاهرة فالأمور الصالحة والمرغوبة لله ستستأثر بعقلنا بدلاً من الأمور المسلية التي تخفي كثيراً من التجارب .

لا نعجبن كيف تغلب الافكار الشريرة الافكار الروحية بسهولة . ولماذا تكاثر الافكار الوضيعة في البشر . لا يكفي ان يعرف الانسان الحقيقة حتى يصبح رجلاً روحياً . عليه ان يفكر بالحقيقة وان يتعمق فيها . لا يحتل الحقيقة من يعرف الحقيقة معرفة فقط بل الذي يتمكن من تحقيقها عملا في حياته اليومية . فكما ان الغذاء والسلاح والدواء واللباس لا تفيد من يملكها فقط بل تفيد من يعرف ان يستعملها كذلك المعرفة . فاذا كانت الافكار الوضيعة تشغل عقل الانسان وتنطبع فيه والافكار الروحية تمر به ولا تجد لها مكاناً فما هو وجه الغرابة في عدم سيطرة الافكار الروحية على قلب الانسان اذا كانت هذه الافكار تطرح خارج النفس تبقى النفس مملؤة بمخزنات الشرور والافكار الخبيثة ؟ من يجهل فن البناء لا يستطيع ان يبني والطبيب الذي يجهل فن الطب لا يعرف ان يداوي والمسيحي الذي يبقى في عالم النظر دون ان يتروض على الحياة المسيحية لا يستفيد شيئاً من معرفته للحقيقة ما دام لا يستطيع ان يبني بناءَها الروحي . ان الجندي يستعمل سلاحه ساعة الخطر ضد العدو . والفنان يستعمل فنه ليصنع ما يستطيع ان يخلقه فنه ونحن فلنستعمل الافكار الصالحة كمستشار ولنتعلم لا ما يجب ان نعرف فقط بل ان نتعلم ونؤمن بما نتعلمه ولنحترق بالمحبة الحقيقية . وتفرض هذه المحبة درساً خاصاً واهتماماً نفسياً . فالنفس عندما تهتم وتنشغل بالأمور البزيئة تنجرف الى الهاوية . فمن الضروري اذاً ان يطرد المسيحي كل

غدو وشرير ويسعى ليتغذى بالأمور الروحية السامية .

من السهل ان يشتهي الانسان الفضيلة وان يريـــد ويفضل الحياة المسيحية . لا يحتاج لا الى تعب ولا الى جهود خاصة في تفضيله . لـكي يحقق هذه الحياة الروحية ويتقدم عليه ان يتألم وان يعمل مدى حياته بنظام وترتيب. نقبل بارادتنا الصراع الروحي فلماذا يصعب على ارادتنا ان تتحمل التعب وألم الصراع؟ ان ما يقوينا ويشددنا في الصراع هو شوقنا الشديد للأمور العظيمة السامية . وهـــذا الشوق يجعل الآلام خفيفة ومسرة حتى عندما تكون حادة ومضنية . عندما نوجه فكرنا الى الأمور الروحية ونعمل لادراك الجمال الحقيقي الموجود في الحياة المسيحية سنوقد الشوق في قلوبنا. لقد اشتعل الشوق في نفس داود بالهذيذ الدائم في الله. لقد اشتعلت بالنار الالهية « لقد استعر قلبي في داخلي وبهذيذي اشتعلت النار » (مز ٣٨ : ٤) . وفي مزمور آخر يغبط الانسان الذي « في ناموس الرب يهذّ النهار والليل » .

فكرنا في الله

يا لصلاح الله الذي لا يعبر عنه . ان الله لا يحبنا فقط بمحبته التي لا تحد بل يطلب أيضاً محبتنا ويعتبرها جديرة بالتقدير ويفعل كل شيء لينالها . لماذا خلق السماء والارض والشمس وكل العوالم المنظورة والجمال الذي لا يبارى في العالم غير المنظور باشارة واحدة ؟ لسبب بسيط . لكي نرى وسط الخلائق حكمته الكلية فنحبه . يصير البشر أهلاً للمحبة عندما يظهرون صلاحاً وحكمة . تنازل الله راضياً وصار انساناً ليدلل لا عن محبته فقط بل لأنه يريد محبتنا . عمل كاله وانسان واستعمل كل الطرق ليجذب اليه قلوبنا ويشعلها بنيران محبته الالهية . ناموس الله ناموس صداقة ويعمل ليجعلنا أصدقاء شكورين . لذلك وجب ان يكون فكرنا في الله وهذا ليس بصعب . لا نحتاج الى سكب العرق ولا الى تعب ولا الى انفاق المال ولا الى المرور بخطر العار ولا الى أي شيء يقود الى المضرة . من الممكن ان نقوم بعملنا وان نفكر بالله . يمكن ان يقوم المرءُ بمهنته وان يحب الله في وقتٍ واحدٍ ، يستطيع القائد ان ينصرف الى عمله دون ان يكون هناك ما يمنعه من التفكير بالله .

لكي يفكر الانسان بالله لا يفرض ان يلتجىء الى الصحراء ، ولا ان يغيّر غذاءَه ، ولا ان يستعمل ثياباً غير التي يستعملها ، ولا ان

يفرض على نفسه ناموس الحرمان فيؤثر في صحته ولا ان يقوم بأشياء اضطرارية . يستطيع ان يفكر بالله دون ان يخسر شيئاً ، يستطيع ذلك في بيته . وعندما تفرض محبة الله التعب والكد فعلى الانسان ان يتعب من أجل هذه المحبة . نحن بشر وقد أعطينا العقل لنفكر فلماذا لا نفكر دائماً بالأفضل أي بالله الذي أخذنا منه العقل؟يفكر الكثيرون بمستقبلهم ، يفكرون بالفن ، بالثروة وبأمور جوهرية أخرى. فلنشغل عقلنا بأفكار صالحة فالنفس التي تهتم بالصلاح تحصن نفسها بسهولة ضد الشر وتحافظ على نقاوة وقداسة النعمة المعطاة لنا بالاسرار . والافكار الصالحة تمنع دخول الافكار الشريرة . ثم ان من يفكر بالصالحات فمن المسلم به انه لن يبقى في حالة من الفكر فقط بل يتعداهـــا الى العمل فيفعل الأفضل والأسمى في حياته وبالعكس فالشرور والاهـواء تنمو بسهولة في نفس من تشغل عقله الخطيئة والشر .

ان الاهتمام بالافكار الصالحة التي تدفع المسيحي الى الحياة الروحية الفاضلة حريّ بكل تقدير . فالسيد الذي أظهر هذا القدر من الرحمة ، وفعل كل شيء من أجل خلاصنا يغبط كل من يحيا حياة سامية مرتبطة وثيقاً بالافكار الصالحة. يغبط الفقراء بالروح والحزانى من أجل خطاياهم والودعاء والجياع والعطاش الى البرّ والرحماء والانقياء القلوب وصانعي السلام وكل الذين يصيرون راغبين في الاضطهادات من أجـل المسيح والذين يهانون ويقرعون الاعداء. كل هؤلاء سيتمتعون بالحياة المغبوطة. فاذا كان بعث الانسان الروحي الجديد يبتدىء بالافكار السماوية المقدسة فالاكليل الذي لا يفنى يحاك في الوقت نفسه في السماء. ان الدرس العقلي للحقيقة سيكون الطريق الأمين والسلّم نحو السماء ، نحو الحياة الخالدة المغبوطة .

ان الدرس العقلي ضروري للتقدم الروحي. أولئك الذين يدرسون

بعقولهم حياة الرب يحصلون على « المسكنة بالروح » وعلى ان « لا يفكروا فوق ما ينبغي بل ان يعقلوا تعقل الحكمة »(رومية ١٢ : ٣). يفكرون ان المسيح صار فقيراً من أجلنا . أخذ صورة عبدٍ وعاشر العبيد واتخذ جسداً وهو السيد ، وفضّل الفقر وهو الاله الذي لا حدّ له الواهب الخيرات الغنية واحتمل الاهانة وهو ملك المجد ، وطاف مقيداً وهو الذي حلّ عقالات الخطيئة واعتق الجنس البشري منها ، وحوكم من متجاوزي الشريعة وهو واضع الشريعة ومتممها . لقد رأى من اعطاه الآب « كل سلطة » (يوحنا ٥ : ٢٢) ، رأى قضاة ظالمين وشعباً بكامله يثور حانقاً ضده ويصفح لسفاح ولص . فالمسيحي الذي يفكر بكل هذه الأمور لا يمكنه الا وان يحطم كبرياءَه ويتضع . يفاخر المتكبر بما يقوم به لكنه عندما يفكر ويدري حياة المسيح وأعماله العظيمة فأنه يرى ان اعماله لا تساوي شيئاً ولا يمكن ان تكون مجالاً للفخار ، يراها غير جديرة بتحريره من عبودية الخطيئة ويرى انه غير آهلٍ ليحافظ على الحرية الروحية مستقلاً . ان المخلص قد اعتقنا من الخطيئة بدمه الكريم ووهب لنا هدية الحرية الكبرى .

امثلة الجهالة

عندما نفكر بما فعله المخلص ليخلصنا وأي تنازل تنازله لا نستطيع الا وان نحزن ونبكي على التواني والنوم الروحي اللذين يستوليان علينا. عندما نخسر كنزاً أرضياً نشعر بالحزن العظيم وتصبح ذكرى الخيرات التي فقدناها سبباً لتسكاب الدموع من مآقينا . فلماذا لا نحزن عندما نفكر بالغنى العظيم الذي فقدناه وطرحناه ونحن نستطيع ان نملك هذا الكنز كاملا وبكل تأكيد ؟ ان ظهورنا عاقين نحو من أحسن إلينا يثير الحزن في داخلنا . كم يجب ان يهزنا شعورنا اننا ظهرنا عاقين كسالى ، لا نحو انسان بل نحو الرب ذاته الذي قابلنا بهذا القدر من الرحمة والمحبة؟

محبة الله ! ان الرب نزل من السماء الى الارض مدفوعاً بهذه المحبة وطلب أرواحنا . عاش بيننا وعاشرنا متخذاً شكلنا وصورتنا . صار شبيهاً بنا ليحرك ويدفىء محبتنا . ظهر كانسان وإله ليوحي لنا بالمحبة ويساعدنا لنعيش بالمحبة . جاء السيد وفتش عنّا فوجدنا . لا يريد ان يبقى مكان فارغ في قلبنا دون ان يملأه بحضوره . جاء كمحسن وأخ ، جاء ودفع ما كان يجب ان ندفعه نحن . فعل كل هذا لا بأشارة بسيطة كما فعل من قبل في خلقة العالم بل احتاج الى ان يتألم ويسكب العرق . لم يكن للألم أي حق على السيد البريء من الخطأ ، ومع ذلك نراه قائماً وسط

العذاب، وسط الاهانة، وسط العار مليئاً بالجراحات يلفظ أنفاسه ويموت أفظع الميتات . ماذا نفعل نحن ؟ أنشعر بالاحسان العظيم ؟ من المؤسف اننا لا نفكر بالنعمة السامية للرب ولا بمحبته التي يعبر عنها في كل مكان. اننا لا نطلب الامور التي نغيّر بها حياتنا بل نميل الى البطل الذي يمقته الرب . نملك ما يمنعه الرب . نتهرب من الامور السامية التي ينصحنا ان نتبعها وننميها في حياتنا . ان تصرفنا ليس تصرفاً عاقاً فحسب بل خبث . أعاقون وخبثاء ! أي جديرون بالرثاء والدموع . يا للاهتمام بالامور البطالة الخاطئة ! أنعتبرها جديرة بكل اهتمامنا لدرجة نحتقر الرب من اجلها وكل الامور الكبرى السامية والازلية التي يدعونا اليها الرب الجزيل التحنن . اذا كنا نحن لا نهتم بالامور الخالدة التي كشفها لنا وكشف فيها حقيقته وأظهر عنايته ومحبته العزيزة فمن يهتم ؟

اننا نهتم بالامور المادية وبما هو ضروري للحفاظ على قوتنا. وننهمك بالكلام والاعمال والمهن. نصبح فلاحين ويصبح البعض جنوداً، وآخرون تجذبهم السياسة ، ومنهم من يمتهن مهناً أخرى . اننا لا نضيع الوقت فنمدح أصدقاء العمل. كل هذا الاهتمام، وهذه الرغبة وهذه المحبة للعمل، يستهدف الحياة المادية . أما الحياة من اجل الامور الروحية الصالحة فقلما تستهوينا . وهكذا نكون دون أولئك الذين يعملون من أجل الحياة المادية، الذين يعتبرونها فوق الحياة الروحية. اننا دون أولئك لاننا لا نهتم بالامور السامية غير الفانية الازلية كما يهتم أولئك بما يرونه فوق المثل السامية، ولكي نلتفت الى هذه الامور السامية نزل السيد من السماء فاستحالت الارض بحضوره سماءً وصار طاغي العالم ، صار الشيطان أسيراً يدوس رأسه أولئك الذين كانوا أسراه . لقد اتخذ السيد جسداً من اجل تحقيق هذه الغلبة ضد العاتي وقبل جسده الجراح ، وسكب الدم فوق الصليب وهزّ أساسات الارض وهو ميت ووهب

الحياة للأموات. كل هذه الامور حدثت لكي نعرف الرب ونتحرر من التصاقنا بالارض ونوجه أنظارنا نحو السماء . ومع ذلك فاننا لما نزل نغط في نومنا ولما نزل كالتماثيل الحجرية لا توقظنا العواصف القاصفة . أهناك من هو أشقى منا اذا كنا كذلك ؟ ألسنا أشقى من أي شقي ، ألسنا بحاجة الى الرثاء ؟ ومن غيرنا يحتاج هذا الرثاء ؟

أية مصائب تستحق فيض دموعنا ؟ المرض . ليس الجسد مريضاً هنا . المريض هو أشرف ما في الانسان . انها النفس . أنذرف الدموع لفاقتنا وفقرنا ؟ اننا باهمالنا اكثر فقراً من أولئك الذين يفتقرون الى كل شيء. ما هو الغنى المادي بالنسبة للغنى الروحي الذي نفقده عندما لا تنجذب قلوبنا نحو السماء ؟ الفاقة المادية تنتهي ساعة الموت، اما الفاقة الروحية والعري فلا ينتهيان بل يستمران بعد الموت في الحياة الاخرى ليغذيا فيها حزننا وعرينا . ماذا اذاً ؟ أنقف موقف اللامبالاة ونترك الشيطان الخبيث يسيطر علينا ، على ارادتنا وفكرنا ؟ من يلق بنفسه فوق نصل السيف لينتحر او في الهاوية لينسحق ويتهرب من أصدقائه ويقترب من الاعداء المجرمين يعطِ أدلة حسية على مسٍ في عقله . والانسان الذي يستسلم لعدو نفسه الشيطان ويتهرب من المسيح لا يبرهن الا عن جنونه .

لو كانت لنا معرفة واعية بهذا الشر العظيم والخطر الذي نتعرض له لكنا ذرفنا الدمع بسهولة ولرافقنا الحزن طوال حياتنا . ان هذا الجرح بليغ على قلوبنا . ومع اننا كنا نستطيع ان نكون سعداء فاننا اخترنا الشقاء واخترنا ان نغرق في الظلمة مع اننا كنا نستطيع ان نحيا في النور. ان مثل هذه الحالات المفجعة تحتاج الى استنزاف دموع الجميع وعلى الاخص أولئك الذين يشعرون بعظم المصيبة . يكفي ان نفكر بأن السيد قد ذبح عرياناً على الصليب ليخلصنا من الحالة التي نحن فيها حتى

نذرف الدموع . ان من تخضع له كل الاشياء وتخدمه يرانا متمردين ضد ارادة من صار انساناً وهو الاله ليجعلنا نحن البشر آلهة . ان مهندس السماء اتشح الارض ليحولها الى سماء والسيد اتخذ صورة عبدٍ ليهب المجد الحقيقي للعبيد . ان ملك المجد « تحمل الصليب مستخفاً بالعار » (عب ١٢ : ٢) .

صورة الوداعة

من الضروري ان نلجم غضبنا كمسيحيين وان نكون ودعاء مع الذين احزنونا ويحزنون . وقد تصرف المخلص هذا التصرف وصار تصرفه فلسفة حقيقية للعالم وكان القدوة الكبرى بما فعله وتحمله من اجلنا. اتخذ جسداً ودماً من اجل أولئك الذين احزنوه بخطاياهم . جاء ليخلص أولئك الذين يستطيع ان يقذف أقسى الاحكام والتهم في وجههم . وزّع احساناته على أناس جعلوا نفوسهم غير جديرة بأية موهبة بسبب خطاياهم . اتهموه بأنه يخرج الشياطين باسم رئيس الشياطين ومع ذلك ثابر بوداعة وتواضع على احساناته مخرجاً الشياطين. لم يكن أحد تلامذته المدعو يهوذا جديراً بمحبته . انفسد واجدب نفسياً وتوصل الى تدبير مؤامرة لتسليم السيد ، فكر بالجريمة ، فكر بأكبر جريمة يقترفها انسان . لكن المسيح الوديع لم يبعده بالرغم من كل ذلك عن حلقة التلاميذ . كان يتصل به كما يتصل بالآخرين من أصدقائه الخلص . يا للوداعة ! مع من كان يشترك المسيح ؟ مع المجرم الخائن . كان يعطيه كل الاسرار ، وقبّل من قبّله . مات من اجل أولئك الذين أحسن اليهم فجرد المُحسَن اليهم سيوفهم في وجهه. وكان رئيس المجرمين تلميذاً من تلامذته ، وكانت القبلة اشارة للجريمة . كان السيد الذي تحمل كل هذا وديعاً رحوماً . عندما رأى ان أحد العبيد الذين اشتركوا في الجريمة

قد قطعت اذنه بسيف بطرس شفاه فوراً . لم يخشَ أعداؤه قـــوته العجائبية فاستمروا في جريمتهم . لقد تحملهم السيد وهم الذين يستحقون أقسى العقوبات واشدها فلم يرعووا هم ولا هو ابادهم بصواعق النار .

ان مصف الملائكة كانوا ينظرون الى الرب بخشية . لكن الكلي القدرة، الرب يسوع الذي كانت القوى السماوية ترتجف منه خوفاً ، تبع بوداعة الذين قبضوا عليه في بستان الجسمانية واسلم يديه الطاهرتـــين للقيد ، اليدين اللتين كانتا تطردان كل الامراض وكل الشياطين . لقـد لطمه احد العبيد على وجهه . كانت له القوة ليقضي على هذا العبد الشرير الكافر . لم يفعل ذلك ، لقد عامله معاملة وديعة ورحومة ، وحاول بالكلام ان يشعره بخطيئته . ان الكتبة ورؤساء الكهنة حكموا عليه وقلوبهم مليئة بالحقد والكراهية ، والرب القاضي المسكونة قبل الحكم صامتاً . يُرفع على الصليب فيظهر محبته حتى نحو قاتليه . يطلب من أبيه راجياً الاّ يعاقبهم . انه يتوسط لهم اكثر من ذلك . ان نبرة دفاعه تعبر عن محبته القصوى « انهم لا يعرفون ماذا يصنعون » (لوقا ٢٣ : ٣٤) . ان السيد كالأب الحنون الذي تألم من اجل اولاده . يريد بوداعته ان يردّ العقل الى صالبيه . مات وفي صوته كل عمق الغفران . عندما قام من بين الاموات وغلب الموت اراد ان يجعل من تلاميذه الذين تركوه في أحرج الساعات شركاء في فرح قيامته . لقد ظهر لهم وأظهر كل تسامحه . لم يبكتهم ولم يذكرهم بهربهم ولا بالوعود التي قطعوها بأنهم سيكونون مخلصين له حتى الموت . ماذا « يفعل الوديع والمتواضع القلب »؟ يعطي تلاميذه سلاماً وروحاً قدوساً ، ويجعلهم حماة المسكونة واسياداً روحيين على الارض كلها .

كيف تصرّف مع بطرس الذي انكره ثلاث مرات بعد ان قام من بين الاموات؟ لم يذكّره بنكرانه ولا بالظروف التي رافقت النكران .

بالعكس امر حاملات الطيب ان يعلنّ البشارة الكبيرة ، بشارة القيامة ، لبطرس بصورة خاصة . انكره بطرس فبادره السيد بالشرف العظيم . رآه بعدئذ وحادثه بلهجة ودية وسأله اذا كان يحبه اكثر مما يحبه التلاميذ الآخرون . سأله ثلاث مرات لا لأن السيد يجهل قلب التلميذ المحب بل ليدلل على انه يتذكر خطيئته الكبرى ، نكرانه ، وليشعل نار المحبة في قلبه وهي التي اشرفت قبل أيام على الصقيع .

على اساس هذه الامور يظهر المخلّص غريباً عن كل اثر من آثار الغضب ، ويعلّم ويسن شريعة الوداعة . يقول : عندما نصلي يجب ان نبتعد قبل كل شيء عن كل غضب . ويعلن في مكان آخر اننا لا نستطيع ان ننال غفراناً لخطايانا ، هذه الهدية العامة التي جاء يحملها الينا من السماء ، إن نحن تركنا نفوسنا مستعبدة لأهواء الحقد والغضب . نستطيع ان نفعل كل شيء . ان نسكب انهاراً من الدموع والعرق ، وان نعطي جسدنا للسيف والنار فأننا لن ننال الغفران اذا بقينا نحمل ثقل الغضب . ومن كلماته التي قالها عن نفسه : « تعلموا مني فأني وديع القلب ومتواضع فتجدوا راحة لنفوسكم » (مق ١١ : ٢٩) نعرف القيمة التي أعطاها المخلّص للوداعة .

أنتكلم بعد عن الوداعة ؟ لكي نصبح شركاء في المائدة السرية يجب ان نشعر بشوق حار . وعندما يوجد هذا الشوق الحار لا يجوز ان نتقدم من المائدة السرية اذا كانت نفسنا غير نقية من الغضب والحقد . فدم المخلّص الكريم الذي انسكب من أجل مصالحة البشر مع الله لا يحتمل أولئك العبيد لأهواء الغضب والكراهية . فيما مضى صرخ هابيل طالباً الانتقام من أخيه القاتل اما السيد المسيح فنادى أباه عندما سكب دمه فوق الصليب من اجل قاتليه . لم يكن في صوته ما كان في صوت هابيل من النقمة . لقد كان صوته مليئاً بالمحبة والغفران .

العطف نحو الآخرين

لا يعلّمنا مثال السيد الوداعة فقط بل العطف نحو الآخرين. نحن لا نستحق بسبب خطايانا رحمة وعطفاً ، فقد رحمنا الله ومـا كنا ننتظر رحمة . حررنا المخلص من عبودية الشيطان واعتقنا من هوس العدو غير المنظور وخلصنا من عبودية الخطيئة ورباطاتها . كانت الاهواء تحزننا وكانت كالجبال بثقلها تضغط صدورنا ، وكانت عبودية الشيطان تزداد ظلماً يوماً بعد يوم . وأمام هذه المأساة وقفنا في حيرة كاملة . وصلنا الى درجة العري النفسي الكامل . لم يكن لاحد ان يمدّ لنا يد المساعدة . صرنا موطىء قدم للعدو . ممن نستقي ماء التعزية عـن خطايانا المرة ؟ أمنّا نحن ؟ أمن الغـــير ؟ البشر كلهم يشعرون بعجزهم الكامل عن مساعدة الآخرين . وماذا أقول ؟ أدواء ؟ أعون وشفاء وقد وصلنا الى مثل هذه الحالة المؤسفة التي لا تمكننا من التفكير حتى بضرورة الطبيب؟ لقد خلصنا السيد بذاته من هذه الحالة الشقية. لم تخلصنا لا الملائكة ولا أي مرسل من المرسلين . خلصنا المخلّص الذي نشتمه ونهينه بحيـاتنا الخاطئة .

هنا يقوم التعجب العظيم الذي لا يستطيع ان يدركه الانسان ولن. ان المسيح لم يرد ان يخلصنا من عذابات الشر فقط بل أخذ على عاتقه

آلامنا وعذاباتنا ليجعلنا نحن الخطأة سعداء ، لانه في « أيام حياته البشرية » (عب ٥ : ٧) ، في حياته على الارض ، تحمّل كثيراً تحننا ورحمة بنا لمّا ظهر لأعين الكثيرين جديراً بالرحمة . عندما سيق الى موته غير العادل على الصليب « كان يتبعه جمع غفير ونساء كن يلطمن صدورهن وينحن باكيات » (لوقا ٢٣ : ٢٧) . لم تتألم النسوة فقط بل بكاه ايضاً النبي اشعيا قبلهن بزمنٍ طويل ، عندما رأى آلامه بعين النبوة ، وازاء هذا المشهد الذي رآه فيه « لا صورة له ولا جمال ولا منظر » لم يتمكن من حبس دموعه .

يا للسر العظيم ! ان المخلّص اثار عطف البشر عندما كان يمر في نزاع العذاب ليرحمنا. لم يرد ان يصير شريكاً لنا بالالم فكرياً او بتعبير ارادي بسيط بل تنازل ليعاني كل ألمٍ ،تنازل ليموت البريء من الخطأ. لا يمكن أي حنان ، مهما كان عظيماً،ان يقارن بالقليل من حنان المخلص ومحبته . يكفي ان نفكر بعطف المخلص نحونا وبمقداره حتى تستيقظ فينا محبة اخواننا فنشاركهم الالم الذي يعانون،والعذاب الذي يذوقون. أي حزنٍ لم نذق ؟ ألم نسقط من السماء موطننا الحقيقي ؟ ألم نمر في فقر روحي ؟ ألم نعذّب بجراحات الخطيئة ؟ ألم نشعر بثقل نير العبودية والاهواء المحمومة ؟ ألم نصبح خارج نفوسنا كالابن الشاطر ؟ لقد تحررنا من هذه الآلام كلها « لكثرة رحمة الهنا » ، فلنغفر نحن لغيرنا اذا اخطأوا نحونا متشبهين بسيد الكل . ان المخلص يدعونا هذه الدعوة ، يدعونا لتوحيد موقفنا بالنسبة للآخرين مستوحين رحمته الالهية : « كونوا رحماء كما ان أباكم السماوي رحيم » (لوقا ٦ : ٣٦) .

نقاوة القلب

اية رياضة ، واية محـاولة ، واي جهادٍ ، وكم من العرق والتفكير والدرس يحتاج المرء ليحوز على نقاوة القلب وقداسة النفس ! لا يكفي ان ندرس حياة المسيح فقط لنحوز على هذه النقاوة بل يجب ان تكون الصلاة شغلنا الشاغل وهذيذنا المتواصل . يجب ان نغتصب هذه النقاوة اغتصاباً لنبقى انقياء القلوب ونفكر بالامور النافعة وبالروحيات ، وان نبقى بعيدين عن كل ما هو مجرم فاسد خاطىء . ان حياتنا مزدوجة ، جسدية وروحية . ينجذب الجسد بالامور المنحطة الخاطئة ويثور ضد الروح وفي هذه الحالة يصبح الجسد عدواً للنفس . يحدث صراع للسيطرة ، صراع بين الجسد المنجذب الى تحت وبين النفس الراغبة بالحياة النقية السامية . فالرجال الذين يعيشون وفقاً لمتطلبات الحياة الجسدية يتركون قلوبهم للرغبات التي توسخ النفس وتفسد العقل . اما أولئك الذين ولدوا بالمسيح فيتغذون بأفكار واحلام سامية تقودهم من الارض الى السماء .

ان السلام الذي يتكلم عنه الرسول بولس سنربحه بنقاوة القلب . ان المسيح « هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً وحلّ السياج المتوسط » (افسس ٢ : ١٤) . لقد صار كل شيء من اجل السلام ، والحصول على هذا الخير العظيم يستحق كل درس واهتمام وسينال السلام البولسي أولئك

الذين يضعونه فوق كل الخيرات فيطردون الحقد المدمر من نفوسهم ، والخطيئة التي تبعد السلام عامة . يقطن السلام في القلوب النقية فقط . السلام هبة عظمى، والله نفسه الذي صار انساناً لم يجد ما هو اسمى من السلام لذلك اراق دمه ليعطي السلام للانسان . لم يجد بين المخلوقات البشرية ما يشتري السلام به لذلك اتخذ جسداً ودماً واراق دمه ليخلق خليقة جديدة نقيه سلامية ، وصار بذبيحته رئيس السلام .

ماذا نطلب نحن الذين نسجد لدم المخلص ؟ ماذا نطلب غير تحقيق النقاوة والتقديس اللذين يُدخلان السلام المسيحي للنفس ؟ أتريد ان ترى ما الجمال ؟ اتريد ان ترى ما اشعاع الفضيلة والقداسة؟ ادرس حياة المسيح . فالمسيح وحده بقي نقياً خالياً من كل خطيئة «خطيئة واحدة لم يفعل » . « ان رئيس هذا العالم قد جاء ولم يجد فيه علة » ولم يستطع حتى اعداؤه الذين ينظرون اليه نظرة اتهام ان يجدوا نقطة دنس في شمس العدالة الروحية. فقد كان ملء القداسة وخلواً من كل خطيئة . يجب ان ندرس حياة المخلص لكي يسيطر فينا الشوق اللاهب لقداسته. اذاك نستطيع ان نتشبه به بالفضيلة ونفهم جماله الروحي . المحبة تنبع الادراك دائماً. ان حواء رأت الثمرة الممنوعة فأدركتها وانجذبت اليها. « رأت المرأة ان الثمرة صالحة للأكل وانها حلوة في عينيها وجميلة للفم فأخذت من ثمرها وأكلت » (تك ٣ : ٦) .

صراع من اجل التشبه بالمثال الاول

أنود ان نوقد شعلة المحبة الالهية للمسيح والفضيلة ؟ من الطبيعي اذاً تحمُّل الاضطهادات ومجابهة كل الصعوبات بفرح لان الجوائز العظمى واجملها تنتظرنا في السماء . ان المحبة لواضع الجهادات الروحية ، المحبة للمسيح فيها هذا القدر من القوة ما يعطينا الايمان الأكيد والرجاء بالجوائز غير الفانية السماوية التي لا نراها الآن . عندما نحب المسيح ونفكر وندرس حياته نتضع ونشعر بضعفنا البشري ، وتنتابنا الآلام ونتسحق من اجل خطايانا . سنكون ودعاء وعادلين ومحسنين وفعلة للمحبة والوحدة بين البشر . وفضلاً عن كل هذه الامور سيكون الفرح واتضاع النفسية العميقة حتى ولو اضطررنا الى ان نجتاز الحياة بالاضطهاد والمهانة بسبب تفانينا من اجل المسيح وتكريس نفوسنا له .

بامكاننا ان نحوز على اكثر الخيرات الروحية ، ومن الممكن ان نتمتع بالتفكير الروحي والدرس وان نحافظ على النية الحسنة . من الممكن ايضاً ان نعمل من اجل امتلاك الجمال الروحي والنفسي وان نحفظ الغنى الذي لا يثمن والذي نأخذه بالاسرار حتى لا نوسخ ونشق اللباس الملوكي الذي لبسناه . لنا العقل والمنطق وهما موهبتان من الله . نملك العقل والمنطق لدراسة حياة المسيح . فالسيد هو المثال الاول الذي يجب ان يرنو اليه الانسان . ما نفعله نحن وما نشير على الانسان ان يفعله نتعلمه

من المسيح لانه هو الاول والوسط والاخير الذي أرشد البشر ويرشدهم الى الطريق الحقيقي والحياة الروحية السامية . المسيح هـو المثال الاول والموحي ، وهو في الوقت نفسه الجائزة والاكليل الذي سيناله المجاهدون . فأبصارنا يجب ان تتجه نحو المسيح ويجب ايضاً ان ندرس حياته على قدر ما يمكن لنعرف كيف نجاهد . ان المجاهدين لا يفكرون بالصراع والتعب بل بالجوائز . يقبلون بسرور ان يتحملوا كل الاتعاب وآلام الجهاد وان يظهروا جلداً عظيماً عندما يفكرون بالجمال والبهاء الذي لا كليل الظفر . لكن من منّا لا يعرف ان من الواجب علينا ان نجاهد الجهاد الحسن الذي يدعونا اليه المسيح علاوة على الاكاليل غير الذاوية التي تنتظرنا ؟ اشترانا المسيح بدمه الكريم ونحن كلنا ملك له . ليس غير المسيح يستحق محبتنا ويجب ان نخدمه وان نكرس ذاتنا وجسدنا ونفسنا ومحبتنا وذاكرتنا وعقلنا وعملنا له لذلك يقول الرسول بولس : « انتم لستم لأنفسكم لانكم قد اشتريتم بثمن كريم فمجدوا الله بأجسادكم وارواحكم التي هي لله » . (١ كور ٦ : ٢٠) .

اننا نملك الامكانية لنصير رجالاً مجددين بالمسيح . اعطينا العقل لنعرف المسيح والرغبة ليلتصق به قلبنا . لدينا المخيلة لنتصوره ونفكر به فهو بالنسبة لنا المبدأ الاول والمثال الاول . ان آدم العتيق ليس مثالاً يحتذى به ، بل آدم الجديد فكان كاملاً ومثالاً للطاعة للآب «صار مطيعاً حتى الموت موت الصليب » (فيلبي ٢ : ٨) . ان آدم العتيق مثقل بالمعصية والتجاوز اما آدم الجديد فكان كاملاً في كل شيء : « انا اتممت وصايا ابي واسكن فيه بالمحبة » (يوحنا ١٥ : ١٠) . آدم العتيق أدخل الحياة غير الكاملة التي تحتاج الى ألوف المساعدات ، والمسيح هو نبع الحياة الخالدة للبشر لانه قام من بين الاموات وهو سيد الخلود وواهبٌ اياه للجنس البشري . وبعبارة موجزة انه المخلص الالهي ، الانسان الكامل في طريقة حياته وهو وحده الاول في كل شيء .

بعيداً عن التخاذل

كل شيء يؤكد ان قلبنا يجب ان يكون ملتهباً بمحبة المسيح ، وان نتصرف تصرفاً مسيحياً وان نقترب من الرب بفكرنا ونيتنا لانه هو الاله الحقيقي ، لا بل الانسان الكامل ومثالنا الازلي . علينا ان نتبحّر بفكرنا في حياة المخلّص وعمله . واذا فكرنا او أحببنا شيئاً في العالم اكثر من محبتنا للمسيح فأن ذلك يعتبر خطيئة ثقيلة وجرماً بحق ذواتنا. فالسيد يجب ان يكون غرض دراستنا الاول واهتمامنا واليه ينصرف عقلنا وقلبنا بفرح . وانه لمن السهل جداً ان نتصل بالمسيح بالصلاة . لا حاجة الى معاملات خاصة ولا الى الصراخ ليسمعنا. فالله موجود في كل مكان ولا يصعب انيكون قريباً منا وهو الذي يلبي نداء من يستدعونه ويطلبونه بايمان فيقطن في قلبهم . علينا ان نؤمن ان المخلّص سيستمعنا وألاّ نخاف او نتردد ظانين ان المسيح لا يستجيب الى صلاتنا كوننا خطأة .

يجب ان نبقي قلة الايمان والتخاذل بعيدين عن النفس وان نقترب دائماً من الرب بجرأة لانه « منعم على غير الشاكرين والاشرار » (لوقا ٦ : ٣٥) . أيصلي احدنا ويطلب العون ؟ لن يشرف على خطر احتقار السيد له . يكفي ان يلتجىء الى الصلاة بانسحاق وتوبة . أيمكن ان

يحتقر السيد احداً وهو الكثير الرحمة والمحبة والصلاح وقد جاء بدون ان يستدعيه الخطأة ؟ «أذهبوا وتعلموا اني أريد رحمة لا ذبيحة، لم آتِ لأدعو صديقين بل خطأة الى التوبة »(متى ٩ : ١٣). اننا لا نطلبه بل هو الذي يفتش عنا . أي غنى سيسكبة ، أي غنى من غنى محبته سيفيض عندما نطلبه ونرجوه بايمان وحرارة ؟ انه يحب حتى الذين يبغضونه فما قولك في المؤمنين الذين يحبونه ؟ لقد أظهر الرسول بولس هذه الحقيقة : « اذ كنا اعداء وتصالحنا مع الله بموت ابنه فالأولى ان نخلص بحياته ونحن مصالحون »(رومية ٥ : ١٠)، ثم اننا نصلي كأناس يتضرعون لا كأناس يملكون هذا الحق . لا نظن بأننا اصدقاء الله بل نصلي على اساس شعورنا بأننا مذنبون خطأة وعبيد مجرمون لا نرجو من السيد ان يتوجنا بل نرجو ان يرحمنا . واذا كان الله لا يقدم صفحه وغفرانه اللذين نطلبهما ، ولا يهب للخطأة حلّ الدين الذي يطلبونه منه فلمن يهب ؟ لا يحتاج الاصحاء الى طبيب بل المرضى (متى ٩ : ١٢). فاذا كان على الانسان ان يستدعي الله ويطلب منه رحمة فهل يكون هذا الانسان غير الانسان الخاطىء الذي يشعر بجريرته وبضرورة الرحمة الالهية ؟ نستدعي الله بلساننا ونيتنا وفكرنا بطريقة تحمل كل الدواء لخطايانا ، « ليس بأحد غيره الخلاص لانه ما من اسم آخر تحت السماء أُعطيَه الناس نستطيع به ان ندرك الخلاص »(اعمال ٤ : ١٢).

ان الخبز السماوي الذي يشدد ويقوي قلب الانسان سيعطينا الشجاعة والصبر والقوة وسيطرد الكسل من أرواحنا . جاء السيد ليحمل لنا هذا الخبز السماوي، وعلينا ان نطلب هذا الخبز، هذه المائدة الروحية ، بكل الوسائل حتى لا نتعرض لخطر الجوع الروحي . فلا نبتعدن عن المائدة الروحية بحجة عدم استحقاقنا. هناك كهنة. فلنتقدمنّ من الروحانيين ونعترفنّ بانسحاق لنتمكن من ان نأكل جسد الرب

الطاهر ونشرب دمه الكريم .وعندما نهتم بالامور السامية ونحفظ قلوبنا نقية فلن نكون من المدانين بالخطايا الكبيرة التي تمنعنا من المناولة الالهية. فكما ان المناولة لغير المستحق تعتبر جرماً مميتاً كذلك الامتناع عن المناولة يعتبر جرماً ايضاً بالنسبة للمسيحي اليقظ الحياة . أولئك الذين يملكون الاهواء في نفوسهم وخصوصاً هوى العداوة والغِلّ نحو الآخرين لا يجوز ان يتناولوا سر الشكر قبل ان ينقوا قلوبهم ويتصالحوا مع الاشخاص الذين احزنوهم . أولئك الذين يملكون نفوساً نقية صالحة ويجاهدون ليبقوا احراراً من الاهواء ويشعرون بنقائص روحية صغيرة وامراض فليتناولوا الدواء، وليلجأوا الى المدبر الالهي للصحة الروحية « الذي اخذ امراضنا وحمل اسقامنا » (متى ٨ :١٧)،ولا يبقوا بعيدين عن الطبيب .

ان دم الرب ،للمؤمن الذي يتناوله بعد استعداد ،يصبح باباً مقفلاً للنفس يمنع دخول ما يوسّخها ويلطخ الحياة الروحية ،او بالأحرى يقفل كل ابواب النفس بعد طرده للمدمر ليجعل من القلب هيكلا لله ينسكب فيه بالمناولة الالهية . ان دم الذبائح لا يسمح بوجود الاصنام في هيكل سليمان . دم المخلص الكريم لا يسمح ان تبقى ... «رجسة الخراب في الهيكل » (متى ٢٤ : ١٥) بل يسند الروح بالروح السيدي كما يضرع النبي داود ، ويهب الطمأنينة العميقة للانسان . لا أرى ضرورة ان اقول عن هذا السر اكثر مما قلت . اذا اتصلنا بالمسيح بسرّ الشكر والصلاة والمطالعة الروحية والافكار السامية العالية فعندئذ نروّض النفس على كل الفضائل ونحفظ الوديعة الصالحة التي يتكلم عنها الرسول بولس بالنعمة التي نلناها بواسطة الاسرار ، بالاضافة الى ان الرب هو المتمم لها والحافظ للنعمة في أرواحنا والمهيء المؤمن لقبول النعمة ،«بدوني لا تستطيعون ان تفعلوا شيئاً » .

ارادتنا

اننا نرى ما للصحة الجسدية من قيمة وما تحمله للانسان من فائدة في الرجل الذي يتمتع بتمام الصحة. ويلاحَظ الشيء ذاته في قيمة الصحة الروحية . ولكي نقدر هذه الصحة قدرها علينا ان ندرس جمال نفس المؤمن وصحته ، المرتبطة حقيقة بالمسيح . لن نعطي أهمية للامـــور البشرية التي تزين المسيحي ولن نهـتم بالعجائب حتى ولو كان المسيحي يملك نعمة العجائب. علينا ان ننتبه الى غنى الفضيلة الموجودة في نفسه. عندما توجد الفضيلة ويوجد برهان على قيمتها فلماذا السؤال عما اذا كان الفاضل يملك نعمة عجائبية ؟ العجائب ليست برهـــاناً على الحياة في الفضيلة ، لانه لا القديسين العظام كلهم اجترحوا العجائب ولا كل الذين اجترحوا العجائب كانوا من القديسين ، ومن فعلة الفضيلة كثيرون من القديسين الذين ارتفعوا ورفعهم الله وقاموا بأفعال الفضيلة لم يجترحـوا حتى ولا عجيبة واحدة ، والعكس فقد وجـــد رجال اشرار خبثاء اجترحوا عجائب كما فعل يهوذا العبد الغاش .

يحتاج عمل الفضيلة وتحقيقها الى تعب وألم . أمـا النعمة العجائبية فيعطيها الله . لا يحتاج الانسان الى جهـد لاجتراح العجائب . كثيرون هم الذين حصلوا على نعمة العجيبة دون ان يشتاقـــوا نيلها . مـــن

يملك مثل هذه الموهبة يجب ان لا يباهي فرحاً ولا تفرحوا لان الارواح تخضع لكم بل افرحوا لان اسمكم كتب في السماء » (لوقا ١٠ : ٢٠). فما دامت العجائب لا تعطي الانسان الفضيلة ولا تظهرها اذا كانت موجودة فمن الغرابة ان يطلب الانسان رؤية العجائب ليقتنع بوجود الفضيلة . من يعرف كل الاسرار ويُلمّ بكل النظريات الروحية لا يستحق ان يكون مثار اعجاب فمن المؤكد ان هذه الامور كلها تتبع الحياة الفاضلة وهذا لا يفرض وجود الحياة الروحية بالضرورة ، والبرهان ما يقوله الرسول الى أهل قورنثية : « اذا كانت لي النبوة لأرى كل الاسرار واعرف كل المعرفة ، واذا كان لي كل الايمان حتى أنقل الجبال وليست لي محبة فلست بشيء » (١ قور ١٣ : ٢) .

لنتغاضَ عن الامـور الاخرى كلها ولننظر الى ارادة النفس التي يتعلق بها صلاح الانسان وخبثه وصحته الروحية ومرضه وحياته الروحية وموته . فاذا كان الله وحده يحكم ارادة الانسان لصالحه تكون حياة الانسان صالحة مغبطة . يجب على الانسان ان يجعل نفسه غرضاً من اغراض دراسته ، كيف يروض ارادته حتى لا يريد الا الصلاح. ان الله يعمل من أجل هذه الغاية وكل اهتمامه ينحصر في هذه الناحية . وقـد أعطى الله المكافأة من أجـل ترويض الارادة على الفضيلة فوعـد بالجوائز الأبدية والخيرات الصالحة كما فرض العقوبات والتهديدات التي لا حدّ لها في الوقت نفسه . ان الله خلق العالم ووضع نواميس الهيـة لا تزول وأعطى الانسان خيرات غنية ، كما انه أوجد عقوبات صارمة وكثيراً ما يعاقبه ويجربه بشتى الطرق ليجذب اليه نفسه ويقنعه بأن يحب الله بارادته. من يستطيع ان يدرك غنى خيرات الله واحساناته التي لا تثمن للانسان ؟ أية مكافأة يطلب الله لقاء هـذه الخيرات المنظورة وغير المنظورة ؟ ان تكون لنا رغبة صالحة وان نريد وان نفعل الخير . كل

الوصايا والارشادات وكلام الله يستهدف خيرنا . عندما يدين الله الطمع والرغبات الوضيعة والغضب والحقـــد لا يطلب الا توبة ومحبة للخير ودواء وارادة قوية . كل الفضائل التي من أجلها يغبط المسيح الانسان هي من عمل النعمة والارادة .

أليس الايمان بالله والعقائد الصحيحة عامة من مميزات البشر الذين يملكون نية حسنة وارادة صالحة؟ان الله أعطى الناموس من أجل المحبة ولكن الفضيلة لا تتطور بدون ارادة . فعندما يطلب الله منا ،بعد الاهتمام بتهذيب نفوسنا وارادتنـــا ثماراً روحية ،فمن الواضح انه يعطي لارادتنا كل قوة لفعل الخير . فالمعمودية وكذلك الاسرار الاخرى تجهزنا للحياة المستقبلة ويعتبرها الرسول بولس « قوى الدهر الآتي » (عب ٦ : ٥). انها تجهزنا للحياة بما تعطيه لنا من القوة فنحقق الحقيقة المسيحية ونحياها. ان الحقيقة المسيحية كعمل وحياة هي اكليل لنا . انها تؤهـــل المؤمن ليسكن المسيح في قلبه ،« اذا احبني احد حفظ كلامي وابي يحبه واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا » (يوحنا ١٤ : ٢٣) .

من سيحافظ على كلام الله؟ من كانت له النية الصالحة ومن أراد ان تكون له هذه النية ،فالله حدّد جوائز أبدية للانسان لانه ينشد الفضيلة بارادته ، وحدّد عقاباً أبدياً للخطأة الكفرة لانهم بارادتهم يصبحون كذلك. الانسان مسؤول أمام الله لانه حرّ في أن يختار بين الخير والشر. فلو كان عبداً وكانت أفعاله اجبارية لما استحق لا الجوائز ولا العقوبات. الحياة الروحية المغبوطة تتعلق بارادتنا . الانسان يكون بارادته صالحاً او شريراً . الشرير يهتم بالامور الوضيعة البطالة الخاطئة ،والصالح يفرح بالامور الصالحة السامية الروحية . ليس الخبث والصلاح بـــل الشقاء والسعادة ايضاً يتعلقان بالطريقة التي تتهذب بها الارادة وتتروض .

تشخيص وشفاء

من يحيا الحياة السامية ويتبع في حياته الفلسفة الحقيقية، أي الفلسفة المسيحية، فانه يعرف جيداً ما هو الشر الذي يجب ان يبغض ويتجنب بكل ما فيه من قوة. ما هو الشر اذاً؟ الشرور كثيرة في نظر الانسان مع ان الشر في الواقع واحد. انه خبث النفس النابع من نية الانسان المريضة الشريرة. يسمي الانسان الطقس المتقلب شراً وكذلك الجفاف وقحط الارض والزلازل والوباء وحرمان الخيرات الارضية والمرض والجراح والسجن وأشياء كثيرة مماثلة، كل هذه الامور تصيب الجسد الانساني وثروته. ليس الانسان جسداً ولا ثروة حتى نقول ان الانسان اذا فقد الثروة وتهدم الجسد فقد أشرف على خطر الهلاك. وكذلك لا يصير الانسان شريراً وشقياً بناءً على الرأي الذي يكوّنه عنه الآخرون. يدين البشر بسهولة ويحكمون ويتهمون. يتهمون بالشر من ليس بالشرير ويقولون عن هذا أو ذاك بأنه غير صالح وغير بار. الاحكام البشرية صالحة كانت أم طالحة لا تضيف على الفضيلة فضيلة ولا على الشر شراً. ان سعادتنا وشقاءنا لا يتعلقان برأي الآخرين. فهما كالصحة والمرض، كالفاقة والغنى. ما هو المقياس الصالح للتمييز بين الخير والشر؟ ليست الاحكام البشرية الصادرة عن أناس يعيشون بعيدين عن الله هي المقياس بل حكم الله المعبر عن الصلاح الحقيقي والخير. كل ما

هو خارج عن حكم الله، ويدينه حكم الله هو الشر والفساد، ما يطلب ان نعرفه ونريده هو النافع والمحقق لسعادتنا وكل ما هو مخالف لكلام الله مليء بالخداع .

ان الحقيقة التي تقود الى الحياة الروحية سطرها رجال ملهمون من الله كالأنبياء والرسل . اما الحقيقة الكاملة الكلية فقد بشر بها نبع الحق . ذاك اتخذ صوت الانسان من أجل هذه الغاية. أين يجد الانسان الحقيقة النقية الخالصة الكلية ؟ أيجدها في غير كلام الله ؟ أليس الله الحقيقة الوحيدة والصلاح الوحيد ؟ اننا سنجد الصلاح بتعليم المسيح لا بآراء المبشرين الذين يجهلون الحقيقة، ويجهلهم لها يسببون الشقاء للانسان. عندما نرى الشر في ذواتنا والآخرين يجب ان نعاني الآلام وان نصلي من أجل نفوسنا ومن أجل الآخرين لاستئصال الشر حتى يسيطر الخير . عندما نملك مثل هذا الشوق السامي نستعين بالرحمة الالهية ونرغب ان نرى مجد الله مشعاً وساطعاً في كل مكان .

ان الخطيئة هي الشيء الذي يزعج الذين يعيشون في المسيح أولاً، لان الخطيئة خبث والمسيحيون يريدون الصلاح ، ثانياً لان الخطيئة محاربة للناموس الالهي فمن يحزن من أجل الخطيئة ينال فائدة روحية كبرى. أمريض أنت جسدياً فتحزن وتبكي لمرضك ؟ المرض لا يتراجع ولا يهرب بالحزن والدموع بل يزداد . أما الخطيئة ، هذا المرض النفسي ، فالحزن دواؤها يرافقه الشعور بالتوبة ويحفظ الانسان في مثل هذه الحالة من خطيئة جديدة، ويساعده على ان يترك حياة الخطيئة ويعتقه من كل مسؤولية الجرم الذي يثقله بالخطايا . ان الألم لا يخدم هدفاً غير هذا الهدف في الحياة الانسانية .

اننا نجسر على اقتراف الخطيئة من أجل اللذة والمتعة اللتين تعد بهما.

نبدّل صحة النفس بالخطيئة ، بهذا المرض العضال القتّال ، من أجل لذة خيالية . لو عرفنا الى أي هلاك وضياع تقودنا الخطيئة لما أقدمنا على عمل كهذا ، ولكن عندما نعرف هـــذه المعرفة المخلصة ونتوب ونحزن فمن الواضح اننا سنمقت الخطيئة وسنطرحها جـانباً ونعتاض عنها بالصحة التي فقدناها بواسطة الخطيئة .

هيكل الله

ان المسيحيين الذين يريدون ان يحيوا في الواقـــع حياة مسيحية يعبرون فوراً كل تجربة للخطيئة ويجتثون من نفوسهم كل جذور الشر ويحفظون قلوبهم نقية كهيكل ومسكن للرب لانهم يعرفون ان كل بيت مقدس يجب ان يبقى نظيفاً خالياً من كل دنس، مهما كان طفيفاً، وكذلك لا يجوز ان يمس أواني الهيكل غير الكهنة ولا ان تستعمل في أمـور معاشية او أمورٍ غير مشروعة. ونفس المسيحي المكرسة لله هي أسمى من الأواني المقدسة وغير مسلوكة قط. لا يدخل اليها الذين يبيعون ويشترون والصيارفة والعشارون، أي كل شيء بطال خاطىء. لانه اذا كنا ملزمين بالمحـــافظة على نقاوة الهيكل ونظافته كهيكل للرب فبالأحرى ان نحافظ على نقاوة نفوسنا كمؤمنين نصلي في هذا المكان المعد للصلاة، حيث يحافظ على نظافته في جوٍ بعيدٍ عن الضجيج. ومع ان الكنيسة يقال لها بيت صلاة مع انه لا يُصلى فيها دائماً، فهناك ساعات لا بل أيام لا تقام فيها الصلاة، اما المسيحي وفقاً لوصية بولس الملهمة فعليه ان يكون على اتصال دائم بالله، ان يكون في حالة من الصلاة الدائمة.

ما أثقل الخطيئة، خطيئة تدنيس النفس، هذا الهيكل الالهي الحي! ندرك ثقلها من الطريقة التي جابه بها المخلص الذين دنسوا الهيكل. لم

يستعمل الرب التعليم والنصح بل استعمل الغضب الالهي والسوط. أراد ان يعلم ، بهذه المعاملة القاسية، لا عن قداسة الهيكل فقط الذي يدنسه تجار محتقرون ومستغلون ويدوسونه، بل عمّا هو فوق ذلك ، أراد ان يعلم عن قداسة هيكلنا الحي ، عن نفسنا ، والى أي حد يجب ان يبقى المؤمن نقياً في هدوئه الروحي بعيداً عن ضجيج العالم والخطيئة . ان الهوى مخيف ، ان تصبح الخطيئة هدارة في أعماق النفس . نحتاج الى ألم مقدس وقوة روحية وانتباه يقظ، وكذلك الى يد الله القدير لنبعد الاضطراب والضجيج النفسي الذي تسببه الخطيئة في داخلنا ، في هذا الهيكل الالهي. كان مدنس الهيكل في العهد العتيق يعاقب بالموت وكان قدس الاقداس مفصولاً عن الهيكل كمكان غير منظور، لا يجوز الدخول اليه . أصيب عوزيا بالبرص لأنه دنّس المقدسات . كانت هذه كلها رموزاً ترمز الى ضرورة بقاء هذا الملجأ، هذا الهيكل الحقيقي لله، نفس المسيحي ، نقياً .

الاهتمامات الدنيوية

من أراد ان يعيش متحداً بالمسيح عليه ان يهتم اهتماماً صادقاً بنفسه، ان ينجذب بالمسيح وليس بالأشياء العالمية . عندما سمع الرسول بطرس دعوة المخلّص لم يهتم بالأمور الدنيوية . وكل مسيحي وان لم تكن له دعوة بطرس الخاصة، مدعوٌ بالنعمة المستمرة التي تعطى للنفس بواسطة الاسرار ليحيا بالمسيح . يتكلم الرسول بولس عن هذه الدعوة قائلاً : « أرسل الله روح ابنه الى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب » (غلا ٤ : ٦) . يجب ان نعتبر كل الاشياء الأخرى في المرتبة الدنيا لنتمكن من ان نتبع المسيح . « ليس من المستحب ان نهمل كلام الله لنخدم الموائد » (أعمال ٦ : ٢) لانه ما قيمة الخيرات المادية الضرورية بالنسبة لخدمة الله ؟ ثم ان من يخدم الله بصدق سيجد الخيرات المادية الضرورية، لان الله هو النبع والقائد لكل خير . « اطلبوا ملكوت الله وبره وكل شيء يزاد لكم » (متى ٦ : ٣٣) . ان الله الذي لا يكذب قد أعطانا هذا الوعد.

يتكلم المخلّص كثيراً بقصد حمايتنا من الاهتمامات الدنيوية ويقول بأنه لن يتركنا بل سيهتم بنا وبحياتنا . انه يشدد على هذه الحقيقة لاننا مشرفون على خسارة الامور السامية لسبب اهتمامنا الدنيوي . اذا كان الاهتمام الدنيوي خطراً فما قولك بالاهتمام المرفوق بالعذاب ؟ ان هذه

الحالة من النزاع الحياتي تقود الانسان الى منحدر الضلال. من ترك نفسه ليكون العوبة بيد القدر والاهواء الحياتية يعاني دواراً وانهياراً نفسياً وتضعضعاً ولا يتردد عن فعل كل ما هو قبيح وخاطىء ويتوقف كل نشاط وامكانية وعمل ، ويصبح عبداً تحت أقدام الاهواء ، وعندما توجد النفس في مثل هذه الحالة المحزنة تملؤها جراح الخطيئة فتنقاد الى الموت الروحي ، الى الابتعاد الكلي عن الله. الى أين يستطيع الحزن ان يقود الذي يغذيه الاهتمام بالامور الدنيوية . « ان حزن هذا العالم يعمل من أجل الموت » (٢ قور ٧ : ١٠) فمن أراد ان يحيا الحياة الروحية عليه ألاّ يطرد الحزن فقط بل كل اهتمام وقلق ، هذا العدو اللدود للحياة المسيحية .فعلى من يريد ان يحيا الحياة في المسيح ان يحصن نفسه ضد كل الاهتمامات الكافرة .

الحزن من اجل الله

ان الخطيئة تسبب الحزن لجميع النفوس . والحزن الذي يـــلي الخطيئة لا ينبع من منابع واحدة ولا يتأتى من دوافع واحدة . يحزن المرء لتكبره . انه يتخيل نفسه فوق ما هي وعندمايرى السقطة يفكر ان الصنم ، الفكرة التي كوّنها عن نفسه قد انسحقت ،وبكلمة مختصرة يشعر ان كبرياءه قد انجرحت . ويحزن الآخر لانه أخطأ ومن جراء خطئه سيخسر الجوائز السماوية ،ويحزن الثالث لانه يفكر بالحساب الذي سيقدمه في المجيء الثاني وبالدينونة الرهيبة التي تنتظر الخطأة . امـــا الذي تقدم روحياً وعاش عيشة مسيحية حقيقية فأنه يحزن ،اذا اخطأ، لانه بخطئه أهان المشرّع الالهي الكلي الصلاح . وحيث ان المسيحي في نموه الروحي لا يتحرك بدافع الخوف من العقاب ولا بدافع الحصول على الجوائز ،بل بدافع المحبة المسيحية كذلك عندما يحزن للاعمال الخاطئة التي يقوم بها فأنه يحزن محبة بالله . كل المسيحيين الذين تحركهم دوافع الحزن السامية يفضلون على غيرهم الذين يبكون وينوحون بدافع الكبرياء وحب الذات ، لانهم ينوحون ويحزنون من أجل المحبة الالهية .

الحزن والدموع من أجل الخطيئة يجب ان يستهدفا غرضاً واحداً، اقتلاع الخطيئة والاستعاضة عنها بالصحة الروحية . ولا يتحقق هـذا

الا بالحزن من أجل الله لان هذا الحزن هو تعبير صريح عن محبته . الذين يحزنون من اجله يطلبونه بكل قلوبهم وهم الذين كتب عنهم النبي داود « يطلبون الله بكل قلوبهم » (مز ١١٨ : ١) ، العائشون بمحبة حقيقية من اجل الله ويستهدفون من حزنهم شيئاً واحداً، الوصول الى توبة صادقة ليتحرروا من كل خطيئة تسود النفس . هؤلاء لا يصلون الى أي تطرف لانهم يعرفون الى أي مدى يجوز الحزن من اجل الخطيئة .

من المعروف ان الفضيلة البشرية تهدف الى ربط الانسان بالله اما الخطيئة فتبعده عنه . لا يحب الفضيلة محبة حقة الذين يرغبون بالفضيلة بدوافع غير دوافع محبة الله . وكذلك الذين يحزنون على خطاياهم بدافع غير دافع اهانتهم لله . هؤلاء لا يحبون الله ولا يكرهون الخطيئة فعلاً وعندما يتجنبونها بالعقل والعمل لا يتجنبونها بنية صادقة .

عندما تتجنب الخطيئة لا لانك أهنت ناموس الرب بل لانك تخسر من اقترافك لها فانك تتجنب الخسارة اكثر مما تتجنب الخطيئة . والبرهان انه اذا كان بامكانك ان تخطىء دون ان تتعرض لخطر فانك لن تتردد عن فعل الخطيئة . الذي يتهرب من الخطيئة حباً بالله فأنه يحترم المشرع الالهي والناموس وعندما يصطدم بأوامر الله يحكم على نفسه ويدين الخطيئة ويسكب الدموع ، لا لانه يخشى العقاب ويخسر الاجرة بل لانه اصطدم بارادة الله . الذين يحزنون بسبب الخطيئة وليس من اجل الله فلن يحصلوا على نقاوة القلب حتى ولو تابوا عن خطيئتهم . اما الذين يعانون الحزن من اجل الله فيطردون كل مرض يقال له خطيئة .

كمال الفرح

هذا ما يتعلق بالحزن . ماذا بالفرح. اننا نفرح عندما نملك الخيرات الارضية التي نحبها . ونفرح حتى عندما نأمل ان نحصل عليها . « نفرح على الرجاء » كما يقول الرسول . يفرح المسيحي الحقيقي عندما يعرف بأنه يقوم بما هو صالح . يفرح بنفسه وبالآخرين عندما يرى هؤلاء يستهدفون الصالح ويعملون من أجله . الرجل الصالح يشعر دائماً بالفرح ويشتهي سعادة الآخرين . هذا هو الفرح السامي النقي . عندما يشعر المسيحي بفرح الآخرين ويعتبره فرحاً خاصاً به ،عندما لا يطلب منفعته الخاصة ونجاحه فقط بل نجاح الغير ومنفعتهم مبتهجاً بالاكليل الذي يناله هو يكون قد تجاوز الطبيعة البشرية وشابه الله . أنفرح عندما نرى الفضيلة في الآخرين ؟ اننا نسمو كرجال ، ومحبة الفضيلة أصبحت عندنا محبة لها دوافع نقية مجردة .

من الواضح ان من يرغب ويفرح بنمو الآخرين الروحي لن يكون غريباً لا عن الحياة الروحية ولا عن الفضيلة عموماً . أكان يفرح ويهتم من أجل نمو الحياة الروحية عند الآخرين لو كانت نفسه فارغة من كل فضيلة ، لو كان يفتقر الى الحياة الروحية ؟ هناك أناس غرباء عن الحياة الروحية يلبسون وشاحاً ظاهرياً ويتقنعون بقناع المسيحية ويحبون ان

يتقدموا الآخرين في الأمور الروحية وفي عمل الفضيلة . من الواضح ان هؤلاء يفعلون ذلك بدافع الاسم والشهرة والمجدالكاذب،لا حباً بالفضيلة والصلاح . مثل هؤلاء تدفعهم حياتهم الكاذبة لحقيقة يتوهمونها حقيقة . يستحيل على مثل هؤلاء ان يكونوا رجالاً روحيين أفاضل. المسيحيون المعتقون من روح الحسد هم الذين يشعرون بالمحبة الصادقة الكاملة نحو الآخرين ويملكون الفلسفة الحقيقية الكاملة السامية . طبيعي ان يكون الذين يفرحون بنمو الآخرين من المختارين المميزين . وطبيعي ايضاً ان يشعروا بمثل هذا الفرح النقي . يظهر الرجل الصالح من محبته للآخرين باعطائهم ما يملكه . انه ينفق كل قـواه لا في سبيل نفسه بل في سبيل الآخرين . ينزعج للحالة المزعجة التي يمرُّ بها الآخرون . ويفرح للفرح الذي يغمرهم فكأنه هـــو مكانهم . محبة الله تولد في نفسه الفرح النقي البريء . انه لا يفرح بالشخص الذي يحبه بل يفرح بكل مـا يفرح له الشخص المحبوب .

هناك فرح لا يعادله فرح ونقاوة وكمال . بما ان المسيحي يحب الله فوق كل شيء وأكثر من أي شيء فأنه يعيش في الله ويفرح الفرح الذي هو من ثمار المحبة . ما هو هذا الفرح؟المسيحي لا يجعل نفسه غرض هذا الفرح . انه يفرح من اجل الله وفي الله . فالله هو المحسن العظيم لنا،فاذا كنا نحب المحسن الينا فكيف نظهر شاكرين ؟ كيف نكون عادلين اذا كنا لا نحب من وهبنا محبته التي لا تحد ؟ كيف نكون حكماء اذا كنا لا نجعل الله محور حياتنا ؟ وبما ان المسيحي هو شكور بالطبع وعادل فمن الضروري ان يحب الله ويفرح في الله بطريقة مثلى وان يكون فرحه مستمراً ، أكيداً ، فائقاً الطبيعة ،عجيباً . ويكون الفرح مستمراً لانه يتحد بالله الذي يشعر نحوه شعور الشوق اللاهب . عندما يلتقي بالغير ، عندما يعمل ، ويفكر ويفعل ويستعمل شيئاً ما يري كل شيء كأنه من فعل الله . كل شيء يحتفظ بالشعلة المتقدة بالمحبة لله . كل شيء يولد في

القلب نشوة وفرحاً روحياً ،لا شيء يستطيع ان يقلله او يوقف مجراه .

الله يعطينا فرح النفس وحياتها . فالنفس خالدة والفرح الذي يهبه الله لا حدود له . يفرح من اجل الصلاح الالهي الذي لا حدّ له ويطلب من الله الصالح ان يحقق رغبتنا في الفرح غير المحدود. أنى لنا ان نصف الفرح من أجل الله ؟ اننا لا نفرح من اجل الأمور التي حصلنا عليها . لو كان فرحنا من أجل هذه الأمور فقط لكان فرحنا محدوداً، وخصوصاً وأمور كثيرة لما تزل تنقصنا وما تمكنا ان نحصل عليها . كل ما يريده الله يولد فينا الفرح المسيحي ولا يريد المسيحي ان يكون ملك نفسه بل ملكاً لله الذي يشتاقه . يفرح المسيحي من اجل الخيرات التي لا حدّ لها في الله ،لا من اجل الخيرات التي يتمتع بها. ينسى فقره الخاص ويسر بغنى الله اللامحدود . يعتبر الفقر شيئاً غريباً والغنى الروحي هو غناه الخاص . لا يعتبر نفسه شقياً بسبب الحرمان المادي بل مغبطاً وسعيداً بالغنى الروحي .

المحبة – الفرح

أنحب الله محبة لاهبة ؟ يجب ان نضحي بالجسد والروح من أجله . لنكن دائماً على استعداد للتضحية بالجسد في كل لحظة حتى تصبح روحنا بكليتها ملكاً له . فاذا نقينا كل حركة وكل رغبة في النفس وارجعناها لله فسنحقق رغبتنا. اذا طلبنا ان تكون النفس سعيدة فاننا نطلب ذلك على أساس محبتنا لله وذلك باتمام ارادته وحفظ وصاياه الازلية. التفكير الآتي يوضح ذلك بصورة جلية . لماذا نهتم من أجل نفوسنا ولماذا نحبها هكذا ؟ لاننا لا نريد ان تحيا فقط بل ان تحيا سعيدة . من يريد ان يحيا شقياً ؟ لا أحد . ماذا قال المخلص ليهوذا ذي النفس المخيفة ؟ « كان من الافضل الا يولد هذا الانسان » (متى ٢٦ : ٢٤) . بما ان حياة النفس السعيدة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمحبة الله فمن الواضح انه عندما نحب الله نحب أنفسنا ونبتغي سعادتنا . يجهل الكثيرون ، لسوء الحظ ، بأن سعادة النفس الحقيقية تقوم على محبة الله . فهم لذلك يوجهون محبتهم للامور الاخرى وكثيراً ما يفضلون هذه الامور التي تحزن نفوسهم فينتهون الى الشقاء لانهم لا يحترمون نفوسهم . اما المسيحيون اصحاب القيم الحقيقية فيكرسون ذواتهم لله لانهم يعرفون انهم سيحظون بالقرب منه بالسعادة الحقيقية . انهم يحبون الله بكل قوتهم . ومحبة الله تنظم

كل محبة أخرى ، محبة نفوسهم ، محبة كل الاشياء التي تعتبر جديرة بالمحبة .

ان المخلص بالنسبة لنا نحن المسيحيين هو أكثر من نفوسنا ألفة لذواتنا ، والذين يهتمون حتى تكون كل حياتهم محبة للمسيح يعرفون الرباط الذي يربطهم به . يسرع المسيحي الى المخلص ولا سلام فيه وعندما يجده ويحيا فيه يشعر بالسعادة الحقيقية الوحيدة . انه يحب المسيح بكل قواه لان الوصية الكبرى تفرض ذلك «أحبب الرب الهك من كل قلبك وفكرك ومن كل قدرتك » (مرقص ١٢ : ٣٠) ، وبما ان المسيحي يعطي كل محبته لله فأنه لا يترك شيئاً ، لا لنفسه ولا لأي شيء آخر . في كل مكان يصبح الحب رباطاً قوياً والذين يحبون الله يعيشون من أجل المسيح ويفرحون بالله فقط .

الذين يحبون الله يفرحون بخيراته لاشتراكهم بها ويحوزون على الغنى الروحي ويباهون ويفاخرون بمجد الله . عندما يُسجد لله ويُعبد يتكلل هؤلاء ويتشرفون . أما أولئك الذين لا يعيشون لله بل لنفوسهم فأنهم لا يملكون فرحاً خلواً من ظلال الألم حتى ولو فرحوا بالخيرات الحقيقية . وهم اذا فرحوا فانما يفرحون من أجل الخيرات الحاضرة ولكنهم يتألمون لان الخيرات المستقبلة تنقصهم ولا يستطيعون ان يملكوها لارتباطهم بالخيرات الحاضرة التي تعذبهم وان كانوا يملكونها . والذين يشعرون بالفرح الكامل هم الذين يعيشون بالرب . انهم لا يعانون الألم لان كل شيء يبعث فيهم الفرح ولا شيء يسبب انزعاجهم . لا شيء محزن في الله الذي نعيش من أجله . ان الامور التي يعتبرها المسيحي خاصة به لا تثير حزنه . لماذا ؟ لسبب بسيط . لا يعيش المسيحي الذي يملك محبة كاملة لله لما له . « المحبة لا تطلب ما لها » (١ قور ١٣ : ٥) والمسيحي يحب الله لانه مغبط . المحبة فائقة الطبيعة ، المحبة تجترح العجائب

والانسان هذا الغبار والرماد يترك ما له او بالأحرى يعتاض عنه بما لله ويصبح شبيهاً به . يحدث له ما يحدث للفقراء والحزانى الذين يدخلون البيت الملوكي فيطرحون فجأة فقرهم ويرتدون البهاء .

أهناك فرح أسمى وأمتن من الفرح الذي يعانيه المرء في الله ؟ عندما يستهدف الانسان الفرح بعيداً عن الله فمن السهل خسرانه . ليس في الكون خير ثابت . الغني يفرح قليلاً بغناه ويرتعد جزعاً من فقده . اما كنز الصالحات فلا يتغير . الفرح الآتي من هذا الكنز معتق من كل خوف وحزن . خيرات الله ثابتة وأكيدة وخالدة . أولئك الذين يملكون فرح العالم يكونون في خوف وشك دائمين من ان يفقدوه . اما المسيحي الذي يتمتع بفرح الله فلا يعكر صفوه معكر لانه يصبح قوياً في الله ، به يعتز ويتمتع بالفرح الالهي الفائق الطبيعة . يفرح الانسان فرحاً عظيماً عندما يستبدل بيتاً عتيقاً ببيت جديد أنيق . ترى أي فرح يشعر به من تمكن ان يحيا في الله ، من تمكن ان يشعر بالله أكثر من شعوره بالبيت والجسد والاصدقاء والاقارب . انه يفرح بالمسيح وبما يفرح له المسيح . لقد وضع السيد ناموس المحبة وكلماته شاهد . أوصى تلاميذه ما أوصاهم به . « هذا ما أوصيكم به » ان تحبوني وتجعلوني صديقاً لكم « حتى يكون فرحي فيكم ويتم فرحكم » (يوحنا ١٥ : ١١) لان هذه الصداقة الالهية ستجعل ما لي لكم وعند ذلك ستشعرون بالفرح الذي أفرحه . « ان متم فحياتكم مختبئة بالمسيح الرب » (كولوسي ٣ : ٣).

لم تتقدس حياتنا فقط بل تقدس كل شيء فينا وتثبت في المسيح . لم يبق شيء بشرياً « ألا تعرفون ان جسدكم هيكل للروح القدس الذي فيكم أعطيتموه من الله وليس لكم لانكم قد اشتريتم بثمن كريم » (١قور ٦ : ٩) . من اشتري لا يملك ذاته ، تتعلق ذاته بالشاري . ويعيش وفقاً لارادة الشاري ورأيه . كان العبيد قديماً عبيداً بالجسد احراراً في الرأي

والتفكير . اما المسيحي الذي اشتراه المسيح فهو بجسده وروحه ملك للمسيح . كان البشر يشترون اجساد البشر اما المسيح فقد اشترى كل انسان . كان البشر يدفعون ثمن الانسان مالاً . اما المسيح فقد ضحى بحياته من اجل تحريرنا من عبودية الخطيئة . تألم وقاسى العذابات وقبل التضحية ، « ان نفسي حزينة حتى الموت » (مرقص ١٤ : ٣٤) . لقد أعطى كل ذاته ليشتري كل الانسان وهكذا اشترى ارادتنا وقبل ارادتنا قبل كل شيء لانها هي التي استعبدت للخطيئة . فعـل المخلص كل شيء ليجذبنا ويجعلنا من خاصته . لم يستعمل طريقة العنف فقد أراد فكرنا وعقلنا . لم يغتصب بل اشترى . وما دمنا قد اشترينا بدم المخلص فلا يمكن ان نستعمل ارادتنا من أجل الخطيئة وان نتركها أرجوحة بيد الاهواء . ان ارادتنا ملك للشاري .

عبودية وعبودية

أمسيحيون حقيقيون نحن؟ ألنا الشعور العميق بأننا قد اشترينا من قبل الرب ؟ اذا كان الجواب نعم فاننا لـن نحب ذواتنا حباً أنانياً . ستكون محبتنا وارادتنا كلها مع المخلص لانه اذا كانت ارادتنا لا تنجذب بالمسيح فما الفائدة من الذبيحة الصلبية التي تمت من اجل مشترانا؟ عندما نحب المسيح فقط فمن المسلم به ان تنعتق نفوسنا من كل حزن وذلـك لاننا لن نفعل شيئاً يخالف ارادة الله . فالفرح الذي نتذوقه سيكون فرحاً عظيماً فائق الطبيعة ، الهياً لا يعبّر عنه ولا يوصف. من كان عبداً للخطيئة وعبداً للبشر يحزن اما عبد المسيح فلا ، بل يفرح الفرح الكامل. ان عبد البشر يسير وراء شاريه بألم وعذاب وحزن لان الانسان الشاري مجرم خاطىء مطالب مدان . اما عبـد المسيح فيتخلص من الحزن . وكيف لا ؟ وهو الذي يسير وراء نبع الفرح والغبطة .

كان الرجال الذين يشترون العبيد يدفعون ثمنهم مـالاً لا ليحسنوا اليهم بل ليربحوا من عملهم وتعبهم ومشقاتهم . كان العبيد يعرفـون ذلك . كانوا يعرفون انهم آلة استغلال غـايتها العمل فقط ليعيش من اشتراهم مترفاً . كان من الطبيعي ان يكون العبد في حـالة من الغم والحزن في الوقت الذي كان فيه سيدهم يتهلل ويتنعم . اما بالنسبة لنا نحن المسيحيين كعبيد للمسيح فالقضية تنعكس. ان السيد فعل كل شيء

من اجلنا ومن اجل سعادتنا ونمونا . أعطى دمه الكريم بدلاً، لا ليتمتع هو بأتعابنا بل ليجعلنا شركاء ومساهمين في خيراته . اننا لا نقدم شيئاً للمخلص . السيد ربح عظيم أبدي لا يقدّر بالنسبة لنا. اننا نحن المخلّصين لنا من اشترانا ، والذين انعتقوا من عبودية الخطيئة وأصبحوا عبيداً للمسيح يجب ان يصفقوا تهليلا وابتهاجاً لانهم أبدلوا الفقر بالغنى الذي لا يفسد ، والعبودية بالملكوت الأزلي ، والوقاحة والضعة بأكليل المجد الذي لا يذبل .

ان عبد البشر وفقاً للناموس كان عبداً لا حرية له ولا وزن له. كان في حالة من العبودية طوال حياته الا اذا قبل سيده فك قيوده . اما عبيد المسيح فيتمتعون بكامل حريتهم الحقيقية ويصيرون ورثة المسيح اذا هم قبلوا ان يحملوا نيره مدى الحياة ، ولذلك يقول الرسول بولس « افرحوا بالرب » مظهراً بكلمة الرب من اشترانا ان المخلص يسمي من يصير شريكاً في فرحه عبداً صالحاً: « ايها العبد الصالح الامين أدخل الى فرح ربك » (متى ٢٥ : ٢١) لانك بقيت عبداً امينا مخلصاً ولم تمزق الصك الذي اشتريتك به . تمتع الآن بفرح ربك ومخلصك .

لم يرد المخلّص ان يُعجب بنفسه بل ولد وعاش ومات من أجلنا نحن عبيده . وعندما صعد الى السماء وجلس على العرش عن يمين الآب جلس من أجلنا نحن البشر . فهو المعزي الازلي ووسيطنا عند الآب . فاذا كان لنا سيّد كهذا فمحبتنا يجب ان تتجه نحوه لا نحو نفوسنا. ويوحنا المعمدان مثال لهذه المحبة . انه لم يحزن عندما ظهر الرب وخبا مجده . لقد فرح وبشر بالمخلص في الجموع التي لم تكن تعرفه ، شعر بغبطة حقيقية عندما رأى نفسه يصغر ، والرب يعلو ويكبر ، كان الشوق الكاوي اللاهب يتملكه لمعرفة الرب ولتعريفه الى الجموع . أراد ان يلفت الانظار اليه كما تلتفت انظار العروس الى الختن . كان يوحنا يلتذ

ان يسمع صوت الختن وكانت هذه الامنية تشكل فرحه العظيم ومتعته الروحية .

كان الرسول بولس يطلب المسيح وما للمسيح . كان ينسى ذاته من أجله وتحمل كل شيء في هذا السبيل . كان يتمنى ان ينفصل عن المسيح لعظم محبته له . كان يتمنى ان ينفصل الى الأبد من أجل مواطنيه الاسرائيليين وخلاصهم وهكذا يتمجد المسيح أكثر . كان يرغب بهذه الخسارة من أجل المسيح نفسه الذي أحبه . كانت ارادته متفقة تمام الاتفاق مع ارادة الرب . لهذا كان يفرح دائماً وما كان ليحزن قط . وعندما كان يكتب بأنه كان يئن ويتعذب من أجل الاسرائيليين البعيدين عن المسيح كان الألم من النوع الذي لا يبعد الفرح عن قلبه ، الفرح النابع من محبته للمسيح . كان ألمه مليئاً بالفرح لانه كان ثمراً للمحبة وكبر النفس . لم يُدخل هذا الألم شيئاً الى قلبه ، لا مرارة ولا قسوة ولا ضغارة نفس . ومن وعظه للمسيحيين يظهر انه كان في حالة من الفرح الدائم « افرحوا دائماً بالرب واقول ايضاً افرحوا » (فيليبي ٤ : ٤). لقد برهن بالعمل هذا الفرح . برهن ذلك قبل أي انسان . وأراد ان يكون الفرح دائماً للجميع .

الحياة المغبوطة

مغبوطة هي حياة المسيحيين انهم يحوزون حتى في الحياة الحاضرة هذه الغبطة بالأمل والرجاء . عندما يترك المسيحيون هذا العالم للحياة الاخرى يشعرون بسعادة اين منها سعادة العالم الحاضر . ان الغبطة في الحياة الاخرى أسمى بكثير من السعادة الحاضرة، أسمى بقدر ما تسمو الحقيقة على الرجاء وبقدر ما تسمو رؤية الله على الايمان . ان الله يتبنانا واذاك سيظهر اننا نحن في الواقع ابناء لله فهناك المحبة الكاملة ، هناك كمال الغبطة . نتناول نحن المسيحيين أسرار المسيح وبأخذنا لها نأخذ المسيح ذاته ، « أولئك الذين أخذوه اعطاهم سلطاناً ليصيروا أبناءً لله الذي يؤمنون باسمه » (يوحنا ١ : ١٢) . الاولاد يملكون المحبة التي تطرد كل خوف . من كانت له المحبة لا يخاف الجراحات ولا يخشى خسران اجره . يليق الخوف بالاجراء العبيد اما المحبة فهي من صفات الابناء . ان النعمة تهب نفوس المسيحيين المحبة الحقيقية العاملة في داخلهم . تهبهم الخبرة وتساعدهم في الوقت نفسه على ان يشعروا بالخيرات الالهية وان يتذوقوا الخيرات الكبرى ويرجوا الامور الكبيرة ويؤمنوا بكل تأكيد بالخيرات التي يتذوقونها وينظرونها، خيرات غير منظورة وخالدة وغير فاسدة .

يطلب المسيح منا ان نحافظ على محبته . لا يكفي ان نحبه فقط

وان نشعل شعلة المحبة الالهية فقط بل علينا ان نغذيها وننميها. هذا ما يعني ان نثبت في محبة المسيح الذي به كل غبطة . ان نبقى في الله يعني ان يكون الله معنا « الذي يبقى في المحبة يبقى الله فيه » (١ يوحنا٤: ١٦). وعندما نطبق في حياتنا ناموس الله الذي نحبه ننال ذلك البقاء والثبات في محبته. تحوز النفس على هذه العادة او تلك خبيثة او صالحة وفقاً للافعال والحركات التي نقوم بها . يحدث ما يحدث في المهن تماماً . المهنة التي نتقنها تصبح ملكاً خاصاً بنا . فمن طبق الناموس واعتاد على تطبيقه لا يرغب الا ما يريده المشترع الازلي . ان النواميس الازلية الالهية تحدد أفعال الانسان الذي يخضع ارادته لارادة الله ولا يريد غير الله .« من حفظ وصيتي يكون فيّ وأكون أنا فيه » (يوحنا١٥ :١٠) . والحياة المغبوطة هي نتاج لهذه المحبة الالهية. المحبة الالهية تنتزع ارادتنا انتزاعاً من كل الروابط التي ليست للمسيح وتوجهها نحوه. كل ما يتعلق بنا رهن بارادتنا ، اندفاعات الجسد ، حركة العقل ، وكل ما هو بشري . تقودنا ارادتنا هنا وهناك . كل الأشياء تخضع لها . انها تحكم الانسان .

أولئك الذين يحبون المسيح يملكون أفكار المسيح دائماً ، يرغبون ويحبون ويطلبون ما يريده . وكل وجودهم وحياتهم يقومان فيه . ارادتهم تكون فعالة وحية لانها تكون في المسيح الذي به كل صلاح . لا يستطيع المسيحي ان يفعل شيئاً بدون المسيح، كما ان العين لا تستطيع ان ترى بدون النور . الخير لارادة المسيحي هو كالنور للعين . وبما ان المسيح هو نبع الخيرات فارادتنا تصبح مائتة خاملة اذا لم تكن خاضعة كلياً له، اذا بقي قسم منها خارج هذا الكنز « من لا يبقى فيّ يطرح خارجاً كغصن الكرمة الذي يجف ويلقونه في النار » (يوحنا١٥:٦). اذا أردنا ان نقتدي بالمسيح ونحيا كحياته يجب ان تخضع كل ارادتنا

لارادته . ان ارادة قوية كاملة خاضعة للرب في كل شيء تقود الى الحياة المغبوطة. ان عقل الانسان وارادته يجب ان يكونا متحدين بالله، فالعقل لكي يفكر بالله اما الارادة فلكي تلتصق به بالمحبة .

هذه هي الحياة في المسيح الظاهرة بنور الاعمال الصالحة ، بالمحبة . في المحبة يقوم الضياء ، ضياء الفضيلة بالمسيح ، والحياة في المسيح تفرضها المحبة . لن يخطىء الانسان اذا سمّى المحبة حياة . فالمحبة للمسيح اتحاد به وهذه الوحدة تشكل الحياة الحقيقية ، كما ان الانفصال عن المسيح يدفع الى الموت الروحي ويسببه لذلك يقول « وصيتي حياة أبدية » (يوحنا ١٤ : ١٦) ، وتعني الوصية المحبة يقول المخلص «الكلام الذي كلمتكم به هو روح وحياة » (يوحنا ٦ : ٦٣) . فاذا كانت الحياة الروحية هي محبة المسيح فمن الواضح ان المحبة هي القوة الوحيدة التي يجب ان تحرك المسيحي الحقيقي . يقول الرسول بولس ان كل الاشياء ستبطل في الحياة الاخرى اما المحبة فستبقى لانها ضرورية لغبطة الحياة الاخرى الازلية في المسيح يسوع الذي يليق له المجد الى الدهور .

وان نشعل شعلة المحبة الالهية فقط بل علينا ان نغذيها وننميها. هذا ما يعني ان نثبت في محبة المسيح الذي به كل غبطة . ان نبقى في الله يعني ان يكون الله معنا « الذي يبقى في المحبة يبقى الله فيه » (١ يوحنا٤: ١٦). وعندما نطبق في حياتنا ناموس الله الذي نحبه ننال ذلك البقاء والثبات في محبته. تحوز النفس على هذه العادة او تلك خبيثة او صالحة وفقاً للافعال والحركات التي نقوم بها . يحدث ما يحدث في المهن تماماً . المهنة التي نتقنها تصبح ملكاً خاصاً بنا . فمن طبق الناموس واعتاد على تطبيقه لا يرغب الا ما يريده المشترع الازلي . ان النواميس الازلية الالهية تحدد أفعال الانسان الذي يخضع ارادته لارادة الله ولا يريد غير الله .« من حفظ وصيتي يكون فيّ وأكون أنا فيه » (يوحنا١٥ :١٠) . والحياة المغبوطة هي نتاج لهذه المحبة الالهية. المحبة الالهية تنتزع ارادتنا انتزاعاً من كل الروابط التي ليست للمسيح وتوجهها نحوه. كل ما يتعلق بنا رهن بارادتنا ، اندفاعات الجسد ، حركة العقل ، وكل ما هو بشري . تقودنا ارادتنا هنا وهناك . كل الأشياء تخضع لها . انها تحكم الانسان .

أولئك الذين يحبون المسيح يملكون أفكار المسيح دائماً ، يرغبون ويحبون ويطلبون ما يريده . وكل وجودهم وحياتهم يقومان فيه . ارادتهم تكون فعالة وحية لانها تكون في المسيح الذي به كل صلاح . لا يستطيع المسيحي ان يفعل شيئاً بدون المسيح، كما ان العين لا تستطيع ان ترى بدون النور . الخير لارادة المسيحي هو كالنور للعين . وبما ان المسيح هو نبع الخيرات فارادتنا تصبح مائتة خاملة اذا لم تكن خاضعة كلياً له، اذا بقي قسم منها خارج هذا الكنز « من لا يبقى فيّ يطرح خارجاً كغصن الكرمة الذي يجف ويلقونه في النار » (يوحنا١٥:٦). اذا أردنا ان نقتدي بالمسيح ونحيا كحياته يجب ان تخضع كل ارادتنا

لارادته . ان ارادة قوية كاملة خاضعة للرب في كل شيء تقود الى الحياة المغبوطة. ان عقل الانسان وارادته يجب انيكونا متحدين بالله، فالعقل لكي يفكر بالله اما الارادة فلكي تلتصق به بالمحبة .

هذه هي الحياة في المسيح الظاهرة بنور الاعمال الصالحة ، بالمحبة . في المحبة يقوم الضياء ، ضياء الفضيلة بالمسيح ، والحياة في المسيح تفرضها المحبة . لن يخطىء الانسان اذا سمّى المحبة حياة . فالمحبة للمسيح اتحاد به وهذه الوحدة تشكل الحياة الحقيقية ، كما ان الانفصال عن المسيح يدفع الى الموت الروحي ويسببه لذلك يقول « وصيتي حياة أبدية » (يوحنا ١٤ : ١٦) ، وتعني الوصية المحبة يقول المخلص « الكلام الذي كلمتكم به هو روح وحياة » (يوحنا ٦ : ٦٣) . فاذا كانت الحياة الروحية هي محبة المسيح فمن الواضح ان المحبة هي القوة الوحيدة التي يجب ان تحرك المسيحي الحقيقي . يقول الرسول بولس ان كل الاشياء ستبطل في الحياة الاخرى اما المحبة فستبقى لانها ضرورية لغبطة الحياة الاخرى الازلية في المسيح يسوع الذي يليق له المجد الى الدهور .

محتويات الكتاب

	الصفحة
توطئة	٥
الحياة المسيحية	١٣
وحدتنا مع المسيح	١٥
الاتحاد الاسمى	١٧
المسيح هو كل شيء	٢٠
الحياة الجديدة	٢٢
ابواب السماء	٢٤
الخلاص بالمسيح	٢٨
ابرار العهد القديم	٣٠
عصر العبودية	٣٣
قيمة الاسرار	٣٤
ثمار الظفر الالهي	٣٦
نبع النعمة والخلاص	٣٨
مساهمو الجوائز	٤٠
الاسرار توحدنا بالمسيح	٤٣
المعمودية	٤٥
احتفال المعمودية	٤٨
الولادة بالمعمودية	٥٤
لماذا يجب ان يقوم الموتى غير المعمدين ؟	٥٩
حالة النفس المعمدة وحياتها	٦٣
المعمودية وناموس المحبة	٧٢

معرفة الله تعطى بالمعمودية	٧٥
موجز ونتيجة	٧٩
المسحة ووضع الايدي	٨١
نتائج الختم	٨٣
السر يفعل فعله	٨٦
نتائج المسحة المقدسة	٨٨
السر العظيم	٩٠
الدواء ضد الخطيئة	٩٣
ثمار المناولة الالهية	٩٥
العبادة الحقيقية	٩٨
الاستعداد الكبير	١٠١
نبع الحياة والتقديس	١٠٣
تكريس المذبح	١٠٧
رمز طقوس التكريس	١٠٩
تنازل السيد	١١٥
طريق السمو	١١٧
الحفاظ على الحياة في المسيح	١١٩
الغنى الذي لا يسبر غوره	١٢٢
اعضاء المسيح	١٢٤
احترام نفوسنا	١٢٦
اعداء التوبة	١٢٩
ماذا يجب ان نفكر ؟	١٣١
فكرنا في الله	١٣٤
امثلة الجهالة	١٣٧
صورة الوداعة	١٤١

العطف نحو الآخرين ١٤٤
نقاوة القلب ١٤٦
صراع من اجل التشبه بالمثال الاول ١٤٨
بعيداً عن التخاذل ١٥٠
ارادتنا ١٥٣
تشخيص وشفاء ١٥٦
هيكل الله ١٥٩
الاهتمامات الدنيوية ١٦١
الحزن من اجل الله ١٦٣
كمال الفرح ١٦٥
المحبة ـ الفرح ١٦٨
عبودية وعبودية ١٧٢
الحياة المغبوطة ١٧٥